كُتُبنا
KOTOBNA

سر النسيان: محمد زيتون
طبعة منصة كتبنا الأولى ٢٠١٨
رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٥٣٦٥
ردمك: ٧-٨٧-٦٦٥٤-٩٧٧-٩٧٨

إن منصة كتبنا للنشر الشخصي غير مسئولة عن أراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الأراء الواردة في هذا الكتاب عن أراء المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن أراء المنصة والعاملين فيها

سر النسيان

محمد زيتون

رواية

١

فتح عينيه، فإذا به في صحراء شاسعة. وأحس أنه يحمل شيئًا في يده، فرفع يده لأعلى حتى يراه، فإذا به يرى سيفًا ملطخًا بالدماء، فنهض مسرعًا، وأمسك سيفه جيدًا حتى يقاتل من طرحه أرضًا (هكذا كان يفكر!)؛ ولكنه لم يجد أحدًا أمامه، فاستدار على عجل، ونظر في كل الاتجاهات، فلم يجد أي شخص بجواره. كل ما يراه صحراء شاسعة مستوية جرداء.

لما اطمأن قلبه قليلًا، وتأكد أنه لا يوجد أحد في مرمى بصره، رمى السيف أرضًا، وظل يتفقد نفسه؛ باحثًا عن جراح أو أطراف مقطوعة، فلم يجد؛ ولكنه وجد الكثير من الدماء على ملابسه، وأغلبها جافة بعض الشيء. أحس بشيء على رموش عينه، فرفع يده إلى وجهه، فإذا به ملطخ بالدماء أيضًا.

نظر إلى الشمس فوق رأسه، وكأنها تقصده هو دون سواه، فكانت كدائرة من نار تلهب رأسه. العطش والجوع يقطعان أمعاءه، والصداع الشديد يمزق رأسه، كأن أحدًا ضربه على رأسه ضربة قاسية. مر عليه بعض الوقت، لم يعرف مداه إن كان دقائق أم ساعات. وهو لا يعرف ماذا يحدث، وما هذه الدماء التي على جسده ووجهه، وما هذا السيف، وما الذي أتى به إلى هنا. وبمرور مزيد من الوقت، لم يستطع أن يفكر إلا فى الماء ومعدته الخاوية.

سمع صوتًا من بعيد لأشخاص قادمين. لا بد أن المحاربين قادمون ليقتلوه أو يأسروه! فأمسك سيفه بيديه الاثنتين بقوة، ووقف كمن يستعد لقتال وحش كبير وقلبه يخفق من الرعب. وكلما اقترب الصوت واختلف وتنوعت نغماته، علم أن العدد كبير، فيزداد خوفًا ورعبًا؛ فحياته ستنتهي الآن. ظل ينظر ويتفحص بكل ما أوتي من قوة، ويضغط على عينيه الزائغتين حتى يرى جيدًا؛ فإذا القادمون رجال

عاديون ليس معهم سلاح ولا شيء من هذا القبيل؛ فمن الواضح أنهم تجار. لاحظ ذلك من البضائع التي يحملونها. وقبل أن يقتربوا منه، سقط أمامهم ولم يعِ شيئًا من الدنيا.

-اسقوه بعض الما ، يا رجال. سيموت الرجل عطشًا. انظروا إلى شفتيه المتحجرتين.

أفاق على وقع هذه الكلمات. أعطاه أحدهم ماء ووضعه على فاه ليشرب. وكانت على وجوههم نظرات ريبة وشك، وأخذ أحدهم سيفه بعيدًا عنه. اقترب منه رجل كبير وقال:

- من أنت، أيها الشاب؟ وما كل هذه الدماء؟

- لا أعلم.

- كيف لا تعلم؟!

- لا أعلم أي شيء.

- ما اسمك؟

- لا أتذكر أي شيء.

- وهل يُعقل هذا؟!

قال أحد الرجال وكان يُدعى معلوف، وهو سمين بعض الشيء وذو عينين واسعتين ورأس دائري كبير:

- لعله يريد أن يخدعنا.

- لا تقل هذا، يا معلوف. لا تكن سيئ الظن. اهدأ حتى نفهم.

قال ذلك الرجل الكبير ثم كلم الشاب:

- يا بني، لا تخشَ شيئًا. لن نؤذيك، ولكن علينا أن نعرف حقيقتك. إن كنت تريد المساعدة حقًّا، فعليك إخبارنا بكل شيء.

- لا أتذكر أي شيء. أنا لا أتذكر اسمي ولا أي شيء آخر.

قالها الشاب وهو يبكي!

- تمهل، يا بني. كيف حدث هذا؟!

- لا أعرف.

- لا عليك، يا بني. هوِّن على نفسك.

استدار الرجل لأصحابه وقال:

- أحضروا بعض الطعام.

أكل الشاب بنهم، وشرب الماء، وتركوه ليتباحثوا في أمره، وأخذوا السيف معهم، وعلا صوتهم بعض الشيء بالحديث.

قال معلوف:

- قد يكون قاطع طريق.

- الفتى لا يتذكر أي شيء. أنا أصدقه.. قال الرجل الكبير

- سنكون جميعًا في خطر.. قال أحد الرجال

- لن نكون في خطر. لا بد أن نساعده. إن تركناه هنا، فسيموت.

- لا بد أن نكون حذرين.

- اتركوا الأمر لي.. قالها الرجل الكبير

وبعد جدال طويل، قرروا أن ينصاعوا لأمر كبيرهم، على أن يراقبه أحدهم دائمًا.

اتجه الرجل الكبير والآخرون من خلفه إلى الشاب وكان قد أنهى كل الطعام الذي أمامه. قال الرجل الكبير:

- أتريد مزيدًا من الطعام، يا بني؟

- لا. شكرًا، يا عماه. لقد شبعت.

- ائتوني ببعض الماء وقطعة من القماش.. قال الرجل الكبير لرجاله

بلل الرجل قطعة القماش، ومسح الدماء من على وجه الشاب؛ ثم قال:

- لا بد أن تتخلص من هذه الملابس، يا بني.

انزعج معلوف وقال:

- هل ستعطيه ملابس أيضًا؟! ألم يساورك الشك في أن يكون قاطع طريق؟

- هذا ليس بقاطع طريق؛ فأنا أجوب الصحراء كلها منذ أربعين عامًا، وأعرف قطاع الطرق جيدًا، وأعرف وجوههم، وأعرف نظراتهم.

ثم التفت إلى الشاب وقال:

- هذا الوجه ليس بقاطع طريق.

ثم تنهد وقال: أيها الفتى، ساعدنا أرجوك وتذكر اسمك.

- لا أتذكر أي شيء. صدقني!

- إذن لا بد أن يكون لك اسم. أعرِّفك على الرجال أولًا. هذا معلوف، وهذا طلحة، وهذا عصام، وهذا عتبة، وأنا ممدوح.

- تشرفنا، يا سيدي.

- بماذا تحب أن نناديك؟

- لا أعلم.

- أنا عندي الحل. طالما أنك لست بقاطع طريق، فأنت فارس. سأناديك بفارس؛ فلا بد أنك فارس نبيل شجاع حتى تخرج من المعركة سليمًا كهذا.

- شكرًا للطفك، يا عماه! ولكني أريد أن أتذكر. سيذهب عقلي بهذه الطريقة.

- لا تقلق، يا بني. أعتقد أن هذه صدمة من هول الموقف، أو أن أحدهم قد ضربك على رأسك قبل أن تقتله.

- لا أعلم شيئًا. لا أتذكر.

- هوِّن عليك، يا بني. ارتدِ هذه الملابس، وتخلص من الملابس الأخرى. وحاول أن تنسى أمر السيف وأمر القتال، ولا تفكر كثيرًا؛ حتى يرتاح عقلك.

حل الليل، فتناولوا طعامهم أمام نار أشعلوها في الصحراء، ثم ناموا جميعًا إلا معلوف ظل يراقب فارس.

ظل معلوف يراقب وجه فارس الطويل، وعينيه البنيتين، وشعره الأسود الداكن، وقوامه الرشيق. لو التقيا في مكان غير هذا وفي ظرف غير هذا، لكان معلوف أحبه؛ ولكن منظر الدماء والسيف، وهذه الحالة المخيفة الغامضة؛ كل ذلك يبعث على الشك والقلق.

نام فارس من فرط التعب، فنام معلوف هو الآخر.

رأى فارس فيما يرى النائم أنه في الصحراء يحمل هذا السيف. وكان سيفه يقطر دمًا، ولكنه رأى شيخًا كبيرًا محنيَّ الظهر يمشي أمامه بعدة خطوات، وكانت ملابسه تغطيه كله، فلم يظهر منه شيء. حتى رأسه لم يظهر؛ فناداه:

- يا عماه! يا عماه!

لم يرد الشيخ ولم يلتفت.

- ألا تعرف من أنا، يا عماه؟

- كيف أعرفك؟ من أنت؟

- لا أعرف، ولكن هل رأيتني من قبلُ؛ فأنا لا أتذكر اسمي.

- كيف أعرف من لا يعرف نفسه؟!

- نسيت كل شيء. نسيت اسمي، وكل شيء.

- أمتأكد أنك نسيت أم أنك تحاول أن تنسي؟

- أنا لا أتذكر أي شيء. ساعدني أرجوك.

- أحيانًا يكون النسيان علاجًا لأعتى المشاكل والمصائب؛ فاحمد ربك على النسيان.

- كيف هذا؟ ساعدني أرجوك! هل تتذكر في أي اتجاه رأيتني أمشي؟

- وما ينفعك الاتجاه وأنت لا تعلم من أنت؟

- ساعدني أرجوك!

- النسيان نعمة كما أن التذكر نعمة، والإنسان يُرزق بما هو أنفع له.

- كيف يكون النسيان أفضل لي، وأنا لا أعلم من أنا.

- وماذا يحدث إن علمت وندمت؟

- كيف أندم على أن أكون نفسي؟

- الإنسان يفعل أشياء، وبعدها يتمنى أن لم يكُن أتى إلى الدنيا.

- أريد أن أعرف من أنا.

- لو كان خيرًا، لتذكرته.

رحل الرجل الكهل بعيدًا وهو يردد «النسيان نعمة كما أن التذكر نعمة».

أفاق الشاب من نومه، فوجد ممدوح مستيقظًا بجواره وكانت الشمس في وقت الشروق.

- عمت صباحًا، يا فارس.

- عمت صباحًا.

- ما بك، يا بني؟ أراك منزعجًا.

- لا أعلم من أنا؛ فكيف أكون مرتاح البال؟ كما أنني رأيت رؤية أزعجتني.

- قُصَّها عليَّ إن أردت، يا بني.

فقص عليه فارس الرؤية حتى انتهى وهو يقول: «النسيان نعمة والتذكر نعمة».

- فعلًا، يا بني؛ النسيان أحيانًا ما يكون نعمة كبيرة.

صمت فارس قليلًا ثم نظر في الأفق وقال:

- أن أنسى شيئًا أوشخصًا، فهذا هيّن. أما أنسى نفسي، فهذه مصيبة كبيرة جدًّا. لا أعلم من أنا؟ من أين أنا؟ هل لي عائلة؟ هل ماتوا في هذه المعركة؟ من قتلتُ بسيفي؟ سيذهب عقلي!

- يا بني، لا نعلم إن كان أهلك أحياءً أم أمواتًا، ولكن الظاهر أنه لم ينجُ أحد غيرك من المعركة.

- سأُجَنُّ وأنا تائه هكذا.

- يا بني، حاول أن تتعايش مع وضعك الجديد. وحاول أن تمضي في حياتك؛ فمن الممكن أن تتذكر؛ ولكنك لن تتذكر بهذه الطريقة. حاول أن تهدأ.

- كيف لي بهذا الهدوء؟!

- إن لم تهدأ، فسيذهب عقلك فعلًا.

- لعلي من بلدة قريبة.

- أي بلدة، يا بني! أنا أمشي على هذا الطريق منذ زمن بعيد، ولم أرَ أي بلدة هنا؛ فأقرب بلدة على بعد مسيرة ثلاثة أيام.

- إذن من أين أتيت؟ إني أكره نفسي وأكره الدنيا كلها.

- يا بني، ليس هكذا تسير الأمور.

- لا بد أن أذهب إلى كل البلاد؛ لعلي أجد أهلي أو أي أحد يعرفني.

- عندي لك حل.

- قله أرجوك.

- ما رأيك إن عرضت عليك أن تكون أحد رجالي في التجارة؟ ستعمل معي وتدور البلاد ستة أشهر في العام، وهكذا سيمكنك أن تبحث عن أهلك، وستكسب

قدرًا كافيًا من المال لتحيا به. فإن لم تجد أحدًا أو لم يعرفك أحد، فقد حاولت ولم تخسر شيئًا؛ بل ستكسب المال والعمل والحياة.

- أشكرك بشدة، يا عماه.

- لا تشكرني على شيء، يا ولدي. هل تقبل بذلك؟

- وماذا عن بقية الرجال؟ أسيقبلون بي؟

- لا تقلق بشأنهم؛ فهم طيبون جدًّا، ولكن عليك ألا تخذلني، يا بني.

- لن أخذلك أبدًا، يا عماه.

٢

عمل فارس مع الشيخ الكبير ستة أشهر بالتمام والكمال، مروا فيها ببلاد كثيرة، وقطعوا الجزيرة العربية حتى وصلوا البحر الأحمر. وكان فارس يقصد أن يمشي كثيرًا في كل البلاد التي يذهبون إليها، خاصة في السوق؛ ففيها يتجمع الناس من كل حدب وصوب لشراء حاجاتهم. ولكن طوال هذه الرحلة إلى البحر، لم يتعرف عليه أحد؛ ولكنه في هذه الفترة اقترب أكثر من ممدوح ورفاقه، واعتبر ممدوح أباه الذي لم يرَه، وكان يناديه بذلك.

على الشاطئ، ركبوا مركبًا إلى الجهة الأخرى من البحر إلى الحبشة. انشغل فارس بالبحر والمياه المتلاطمة ولونها الأزرق الساحر، وكانوا يفرحون عندما يصطادون بعض الأسماك؛ فمن اعتاد الصحراء، يحب البحر حبًّا شديدًا؛ فالبحر له سر خاص، يأخذ منك أحزانك كأن هواءه يزيل من على كتفيك الهموم، ويُنعش صدرك بهوائه الجميل.

كانت نزهة جميلة لهم جميعًا. وعندما وصلوا، رأى فارس كيف يشتري ممدوح البضائع. وكان ممدوح يُقرِّبه منه حتى يتعلم ويشغله عما يحيره. وبعدما اشتروا البضائع، رجعوا أدراجهم ثانيةً. وبينما هم في البحر، فكر فارس لوهلة أن يرمي نفسه في البحر ويُنهي حيرته وحياته، ولكنه استعاذ بالله، وعزم على أن يحيا ليكتشف سر النسيان الذي يعيشه.

حينها جاءه طلحة وقال:

- أتفكر في أن تعانق الأمواج؟

- ليس بالضبط.

- أنا أعلم فيم تفكر، يا فارس.

- لقد ساورتني الفكرة لوهلة.

- أعلم هذا لقد ساورتني لمرات.

- حقًّا.

- نعم؛ فلي قصة كبيرة مع ذلك.

- ما هي؟

- سأقصها عليك، ولكن عليك أن تعرف أن لقبيلتنا طقوسًا غريبة جدًّا عشنا بها أعوامًا وأعوامًا. وفحواها ألا يأتي أحد من خارج القبيلة ليعيش مع القبيلة، ولا يخرج أحد من القبيلة للحياة خارجها؛ وإلا تعرض للعقوبة البالغة.

- حقًّا؟ ولمَ ذلك؟ وما العقوبة؟

- العقوبة هي أن تخسر كل شيء؛ تخسر أهلك ومالك ونفسك وكل شيء.

- يعني تنتهي حياتك مثلًا.

- شيء من هذا القبيل. ولكن القصة بدأت عندما كنت شابًّا في العشرين من عمري وقابلت فتاة جميلة جدًّا.

- أين رأيتها؟

- في سوق في الشام. لم تكن من هناك، ولكنها جاءت لتشتري بعض الأغراض؛ أو هكذا ادّعت. كانت في غاية الجمال؛ بيضاء، وعينها زرقاء، وشعرها أشقر. كل شيء فيها مذهل. ذهب عقلي حين رأيتها، فحدثتها فابتسمت لي. اعتقدت حينها أن الدنيا قد ابتسمت لي. رأيتها أكثر من مرة وأعجبت بها جدًّا. مدّت إقامتها لأيام، فذهبت لممدوح وأبلغته بالأمر، فقال لي إنه أمر مستحيل؛ فإذا علمت القبيلة، فسيكون الموت أرحم. أبلغته أني أحبها ومستعد أن أضحي بحياتي لأجلها. استحلفته بالله أن يعطيني نصيبي من المال ويتركني ويرجع للقبيلة ويقول إني قد تهت. قلت له لا حياة لي من دونها، سأموت إن لم أعش معها. وأخيرًا، وافق وأعطاني نصف

نصيبي من المال، وقال النصف الآخر سأعطيه لأبيك؛ فوافقت وذهبت وقصصت عليها ما حدث، فكانت في غاية السعادة وقالت سنرحل في الصباح الباكر. أخذتني من يدي كطفل صغير وأنا سعيد بحبيبتي التي لم أرَ مثل جمالها من قبلُ. لم أصدق أنها ستكون لي. كنت أمشي ويدي في يدها وكأني أعناق السماء فرحًا بها وبجمالها. أخذتني خارج السوق وعرّفتني على بعض الرجال، قالت إنهم إخوانها؛ ولكنهم لم يبدوا كذلك. ثم ذهبنا سويًّا إلى غرفة لننام واحتضنتني كما تحتضن الزوجة زوجها. لم يكن في ذهني سوى أني أحبها، بينما كانت يدها تعبث في ملابسي. لم أعلم حينها ماذا تصنع بالضبط؛ هل هو الفرح أيضًا أم ماذا لم أعرف! ولكني عرفت عندما قصدت يدها مكان المال، فاستلت النقود من ملابسي وأعطتني قبلة على خدي، ثم قالت:

«يا لسذاجتك! هذه أسرع سرقة لي في حياتي، وأكبر قدر من المال أحصل عليه! أترى الدنيا بهذه السهولة؟ يا لك من بائس! ترى فتاة جميلة مثلي وتكلمها، وبعد يومين تريد أن تهرب معها وتضحي بنفسك دون أن تعرف أهلها! أنت ساذج إلى أبعد الحدود! هذا درس كبير لك؛ سأتركك تخرج سالمًا من هنا، ولكن إن تتبّعتني أو رآك أحد من هؤلاء الرجال بالخارج، فسيقتلونك». ثم أشارت إلى الباب وقالت اخرج، أيها الحالم! اخرج الآن؛ لا أريد أن أرى وجهك ثانيةً.

خرجت وكنت مصدومًا في الدنيا كلها؛ هذه من كدت أضحي بحياتي من أجلها. هذه من اعتقدت أن لا حياة لي من دونها.

- وماذا فعلت بعد ذلك؟

- نمت في الشارع أبكي ولم أستطيع أن أرجع لممدوح، ولكن في الصباح رجعت له. قصصت عليه ما حدث، فقال لي إن هذا كان متوقعًا، ولكنه درس كبير لك. وقال إنه لم يعطني كل مالي لهذا السبب، وإن هذا سيكون سرًّا طي الكتمان بيني وبينه فقط. كان نعم الأب، فلو علم أحد من قبيلتنا أن هذا الأمر قد حدث، لم يكن هناك طلحة الذي يحدثك. لقد فكرت حينها أن أُنهي حياتي لمرات.

- ثم ماذا فعلت؟

- قررت أن أنسى وأمضي في حياتي. وتعلمت ألا أكون ساذجًا ومندفعً لهذه الدرجة ثانيةً.

- أنت قررت أن تنسى وأنا أحاول أن أتذكر.

- علاج الأمراض ليس واحدًا؛ فأنا كلما تذكرت هذا الأمر، انزعجت كثيرًا وتمنيت أن أنساه. أما أنت، فتعتقد أن علاجك في أن تتذكر.

- أنا أتمنى التذكر وأنت تتمنى النسيان.

ضحكا سويًّا بينما يقترب المركب من الشاطئ. وطئت أقدامهم الجانب الآخر من الشاطئ وبدؤوا رحلة أخرى إلى بلاد الشام، مرورًا ببلاد كثيرة في الطريق في الصحراء الطويلة. وفي كل بلد يمرون به، يمشي فارس وينظر كأنه يبحث عن شيء، ولكنه لم يجد أي جديد؛ فهو يريد أن يراه أحد يعرفه، ولكن دون جدوى. أنهوا رحلتهم، ثم رجعوا إلى حيث بدؤوا. وعند انتهاء الرحلة، أعطى ممدوح لفارس نصيبًا جيدًا من المال، فقال فارس:

- ما كل هذا المال؟

- هذا نصيبك، يا بني.

- ولكنه كثير جدًّا.

- هذا نصيبك فقط.

- شكرًا لك، ولكن إلى أين أنتم ذاهبون.

- سنذهب لبلادنا لنستريح ونأتيك بعد ستة أشهر. معك الكثير من المال؛ فاشترِ بيتًا صغيرًا، وخذ قسطًا من الراحة؛ فالرحلة كانت شاقة.

- سأشترى جوادًا أجوب به البلاد لأبحث عن أهلي أو عن أي أحد يعرفني.

- كما ترى، يا بني؛ ولكن تذكر أننا سنأتي إلى هنا بعد ستة أشهر بالتمام والكمال.

- سأكون في انتظاركم، يا أبتاه.

ودَّعهم فارس في شجن؛ فقد ألفهم وألفوه. وكانت الدموع تسيل على خدي ممدوح.

اشترى فارس جوادًا وذهب ليجول في البلاد القريبة من الموقع الذي وجدوه فيه بالسيف وغارقًا في الدماء. ذهب ليجول في البلاد كتاجر، ولكن لم تعنِه التجارة قدر ما كان يعنيه وجوه البشر؛ حتى يتعرف عليه أي شخص ويمسك بأول الخيط لمعرفة أصله وقصته.

٣

جلست فتاة بيضاء ذات عينين زرقاوين وشعر أصفر، تُدعى نبيلة، إلى طاولتها في كهفها في تلك الواحة الهادئة البعيدة. كانت تكتب:

في صغري قالت لي أمي بعدما داعبتني كثيرًا

يا بنيتي أحبي رجلًا شجاعًا

أحبي الشجاع ولو كان فقيرًا

أحبي الشجاع ولو كان قصيرًا

أحبي الشجاع ولو ذهب بعيدًا

اذهبي معه أينما ذهب

اذهبي معه ولا تخافي

لا تنظري لما في جيبه

أحبيه من كل قلبك

ضميه بحنان إلى صدرك

ارفعي عنه الآلام براحة يدك

أزيلي عنه هموم الدنيا بابتسامتك

يا بنيتي إن أحبك الرجل الشجاع، فأحبيه

فإن أحبك، كنتِ أميرة

بل ملكة بلا عرش

فعرشك دائمًا في قلبه

فدائمًا تنالين وده

وسيكون فخرًا لك ولولده

فأنجبي له مائة ولد

قد يبدو الشجاع قاسيًا صلبًا

وينخدع فيه من بعُد ومن قرُب

ولكن قلبه لمن أحب لين طري

فإن طلبتِ النجوم، لم تكن محالًا

ولن يصيبك أبدًا منه إهمال

وإن حزنتِ، حرك من أجلك الجبال

وستكون سعادتك عنده جل الآمال

لما رأيتك أنت ورأيت شجاعتك، قلت هذا الشجاع

هذا من قالت أمي في مثله الأقوال

تبسمتَ لي وجئتَ وتحدثتَ إليَّ من غير خوف ولا انفعال

لم تخف من كوني ابنة الأعيان

قلت لنفسي هذا رجل مهيب

أحببتك من كل قلبي كما قالت أمي

حتى أعمى الحب عقلي

لم أرَ فيك عيوبًا

قال الناس عنك لعوب

عن النساء لا يتوب

قلت لي إنهم يحسدوننا ولا يريدون الخير لنا

انظري في كل صوب كيف يتربصون بنا

هذه وهذه وهذه كُنَّ يُرِدْنني حبيبًا

فلا بد من اختلاق الحكايا

غضي الطرف عنهم وتولَّيْ

لا غيرك أرى، يا من ملكت قلبي

لا خير لكِ إلا بظلي

ولما طلب أبي اختبارك

رحلت وتركتني في انتظارك

قلت سأعود حتمًا لدارك

بعدما أنجح في اختباري

وآخذك معي لداري

لا تخافي، يا عصفور الكناري

سأرجع ولن تملِّي انتظاري

أذرفت دمعي ولم ترجع

أدميت قلبي ولم ترجع

مضى عامان ولم ترجع

ليتني أنسى من أنت ولا أتذكر

٤

في يوم ما في السوق، اصطدم فارس برجل، فابتسم له الرجل وقال له عذرًا؛ فتبسم له فارس وقال لا عليك. ولكنه رأى في عيني الرجل شيئًا ما؛ أنه يفكر في وجه فارس. لمعت عينا فارس وانتظر أن يقول الرجل كلامًا آخر، فقال الرجل:

- أين رأيتك من قبلُ؟

- أين رأيتني؟! لا أتذكر، ولكني رأيتك أيضًا.. قالها فارس مندفعًا كمن وجد خريطة كنز

- أنا أيضًا لا أتذكر.

- مشكلتي أني لا أتذكر شيئًا أبدًا.. قال فارس غاضبًا

- ليست مشكلة كبيرة أنك لا تتذكر شخصًا قابلته من قبلُ. هوِّن على نفسك.

هدأ فارس وفكر أنه لا بد أن يكون هادئًا حتى يستثمر هذه الفرصة؛ فهذا الرجل لا بد أن معه مفتاحًا لحياته السابقة، فقال فارس ضاحكًا:

- إنه لمن المؤسف ألا أتذكر رجلًا مثلك.

- شكرًا لك على كلامك الطيب. ما اسمك؟

- اسمي فارس، وأنت؟

- اسمي خالد.

- هل أنت من أهل هذه البلدة، يا خالد.

- لا، لست من أهلها.

قال فارس محدثًا نفسه «بالطبع ليس من هذه البلدة؛ فلا أحد تعرف عليَّ سواه. لو كانت هذه بلدتي، لعرفني أهلها». ثم قال:

- ولا أنا من أهلها. لقد جئت هنا لأتاجر.

- حقًّا! أنا تاجر أيضًا.

- كم ستمكث هنا؟

- سأمكث يومين ثم أرحل.

- وأنا أيضًا سأمكث يومين آخرين. لي خيمة على أطراف البلدة، وأدعوك أنت تبيت معي. سأبحث عنك عند المغيب لنأكل ونسمر سويًّا.

- شكرًا لك، يا فارس على كرمك.

- أراك عند المغيب إذن.

أسرع فارس ونصب خيمة خارج البلدة، وأحضر الطعام وأشعل النيران وجهز جلسة تليق بضيف كريم. وعند المغيب، ذهب إلى السوق، فلم يجد خالد. بحث عنه كثيرًا ولم يجده. سأل عنه التجار في السوق، فمنهم من قال لا أعرفه، وبعضهم قال لقد رحل مع أحد من أهل البلدة.

ذهب فارس إلى خيمته خالي الوفاض؛ فقد خاب أمله في أن يعثر على أي خيط يفيده في معرفة نفسه وماضيه. ومكث طوال الليل حزينًا ينعى حظه من الدنيا، وكان يكلم جواده ويقول:

ألا يحق لي أن أعرف من أنا؟!

كيف أعيش وأنا لا أعرف من أنا!

هل كان لي أهل؟

هل كان لي أصحاب؟

هل كانت لي حبيبة تنتظرني؟

من قتلت بهذا السيف اللعين؟

أنا تائه في ظلام دامس لا أرى فيه أي شيء.

ثم رفع يده إلى السماء راجيًا ربه وقال:

«يا رب، أرشدني! يا إله العالمين، لا تضيعني!»

بات فارس في هم وكدر، وفي الصباح الباكر ذهب إلى السوق مسرعًا ومعه بعض البضائع. ظل واقفًا أمام بضاعته يراقب التجار والناس ولم يُناد على بضاعته قط، وإن سأله أحد عليها، لا يرد؛ فهو في شغل عن الدنيا يبحث في وجوه الناس عن وجه خالد. ظهر خالد عند الظهيرة، فذهب فارس مندفعًا إليه وعلى وجهه الكثير من الانزعاج فقال:

- لقد جئت هنا بالأمس لأبحث عنك عند المغيب، فلم أجدك. أين كنت؟

- ما بك، يا فارس؟! لماذا كل هذا الانزعاج؟!

حاول فارس أن يسترجع هدوءه بذكاء فقال:

- لأني انتظرتك وأعددت الطعام وكل شيء. ألست أهلًا بضيافتك؟

- لا تقل هذا، يا أخا العرب. كل ما في الأمر أن أحد أقربائي هنا رآني وأصرَّ على أن أبيت معه. ويشرفني أن ألبِّي دعوتك إن كانت لا تزال قائمة.

- بالطبع لا تزال الدعوة قائمة.

- إذن فلنلتقِ عند المغيب.

- سأكون هنا بالسوق.

باعا معظم بضائعهما حتى أشرفت الشمس على المغيب، فاشترى فارس نعجة صغيرة وذبحها وسلخها في البلدة، وأخذها معهم إلى الخيمة. بدأ فارس في إعداد المجلس والشواء، وأشعل النار ووضع النعجة على النار، فقال خالد:

- هذه النعجة لنا وحدنا.

- نعم، يا صديقي.

- هذا طعام كثير جدًّا.

- أنت ضيف عزيز على قلبي.

- لم أرَ أحدًا في مثل كرمك، يا فارس.

بدأ فارس في شواء النعجة وبدأ السمر مع خالد.

- من أين أنت، يا خالد؟

- من بلدة تبعد يومًا من هنا ناحية الغرب.

- هل أنت التاجر الوحيد في العائلة.

- لا. كل عائلتي تجار؛ فماذا يستطيع المرء منا أن يعمل في مثل هذه الصحراء إلا أن يكون راعي غنم أو تكون تاجرًا؟

- هناك الكثير من الأعمال الأخرى.

- نعم، ولكن ليست بالكثيرة وليست بالدائمة أيضًا. أتذكر منذ تسعة أشهر تقريبًا أن الحداد الذي في بلدتنا أصبح عمله قليلًا جدًّا، ففكر في أن يصنع بعض الدسائس بيننا وبين بلدة مجاورة لنا. ادَّعى أن هذه البلدة تستهزئ بنا وتقول إن سيوفنا صدئت، وأنهم سيميلون علينا ميلة واحدة، فيأخذون نساءنا وأولادنا سبايا. كل هذه الخرافات من أجل أن يخاف الناس ويذهبوا ليصنعوا سيوفًا جديدة عنده.

فكر فارس في أن هذه ربما تكون معركته التي كان فيها، فقال:

- شخص خبيث حقًّا، ولكن هل حدثت معركة في إثر هذا.

- لا، لم يحدث شيء. كان عقلاء البلدتين أعقل من هذا وطردوا هذا اللعين.

- لم يمت أحد؟

- لا. لم تبدأ أي معركة أصلًا.

- الحمد لله.

بدأ الشك يظهر على وجه فارس، وظل يقلب النعجة حتى فاحت رائحة الشواء الذكية ثم بدءا طعامهما. قال خالد وهو يملأ فاه بالطعام:

- أحاول أن أتذكر أين رأيتك.

- ألا تتذكر.. قالها فارس وعلى وجهه ابتسامة أمل

- لا، لا أتذكر؛ ولكن قل لي منذ متى وأنت تعمل تاجرًا؟

- منذ ٦ أشهر تقريبا.

- علمت أنك حديث عهد بالتجارة.

- وكيف علمت؟

- راقبتك اليوم وأنت تبيع. رأيتك غير ماهر. لا تؤاخذني على هذا القول؛ فلا بد أن أكون أمينًا مع من يكرمني.

- لا عليك؛ فأنا ما زلت أتعلم.

- أنت تبيع للناس كلهم بسعر واحد، وهذا غير صحيح.

- كيف هذا؟

- التاجر الماهر هو الذي يبيع بضاعته حسب وجاهة المشتري؛ فهل يُعقل أن تبيع للغني والفقير سواء بسواء؟! إن جاءك الغني، فبالغ في السعر، فسيعتقد حينها أنها بضاعة نفيسة وسيشتريها بالثمن الذي تقوله. وإن جاءك فقير، فأعطِه السعر الأصلي؛ فإنه لن يشتري بسعر مرتفع.

- يا لها من فلسفة! قالها فارس غير مقتنع، ولكنه افتعل الاقتناع والإعجاب

- نعم. أنا خبير في البيع والشراء؛ فهذه مهنتي ومهنة آبائي وأجدادي.

- هذا واضح عليك. وإنني أوجّه العتاب إذن إلى من علمني.

- من الذي علمك؟

- رجل كبير يُدعى ممدوح، وهو مثل أبي.

- دعني أقل لك إنه لم يحسن تعليمك.

- منك نتعلم، يا خالد.

- لا عليك. سأعلمك كل شيء؛ فأنت طيب وكريم والتجارة ليست لأمثالك. لا بد لك من بعض الدهاء.

- حقًّا؟

- سأقص عليك قصة حتى تتعلم؛ ففي القصص والأمثلة فائدة كبيرة. ذات مرة ذهبت مع قافلة إلى بلاد بعيدة جدًّا في البحر، كانت أبعد من الهند. وكان هناك الكثير من البضائع والثمار الغريبة، وكان زملائي من التجار يشترون البضائع المعروفة لهم فقط، وكان السعر بخسًا جدًّا؛ فانهال الجميع على البضائع التي يستطيعون بيعها. أما أنا، فعمدت إلى شراء غريب الثمار من كل نوع. كان الجميع مندهشين ويستفسرون ماذا ستفعل بها؟ إنك لمجنون! فقلت سترون. وعند ذهابنا إلى البلاد التي كنا سنبيع فيها، ذهبنا جميعًا إلى السوق، وبدأ من معي من التجار ينادون على بضاعتهم ويقولون هذا تفاح لذيذ! هذا موز من وراء البحار! هذا رمان شهي! وكان الناس يقبلون عليهم، فانتظرت لما تجمع الناس قليلًا عليهم، ثم وقفت على كرسي صغير غير ثابت بعض الشيء، ولكني توازنت عليه. وقلت هلموا إلى ثمار الصحة والشباب! هلموا إلى الثمار التي تجعل الكهل شابًّا! هلموا إليَّ واشتروا ثمار القوة والخصوبة! أتعلم ماذا حدث؟

صمت خالد قليلًا، ولكنه لم ينتظر جواب فارس؛ إذ رفع يديه عاليًا ثم ضمهما إليه في فرحة وقال اندفع إليَّ الناس جميعًا. وبالطبع كنت أبيع الثمار بثمن مرتفع جدًّا؛ فهذه الثمار السحرية لا بد أن تكون صعبة المنال. وبالطبع لم يشترِ الثمار إلا الأغنياء، وكان بعضهم يشتري دون سؤال، وكان الآخر يميل عليَّ ويقول أتنفعني هذه الثمار، فأقول «نعم، تنفعك. خذ صاعين من هذا وصاعين من ذاك، وتناولها على مدار أسبوعين، وابتعد عن زوجتك حتى تنفذ الكمية ويظهر المفعول، ثم جرب وادعُ لي».

لقد بعت البضاعة بأضعاف أضعاف ثمنها، وكنت حينها طبيبًا لا تاجرًا. كنت

مبجلًا في تلك البلدة، ولكني أحسست بالخطر عندما هددني بعض التجار، فرحلت عن البلدة وعزمت على ألا أرجع بتاتًا.

- طبعًا، لن ترجع وإلا قتلوك.

- أتعلم ماذا حدث بعدها بعامين.

- ماذا؟

- رآني أحد أهل البلدة في سوق أخرى، فحاولت التهرب منه، فركض خلفي وظل يناديني، فخفت وتعثرت فلحق بي وقال «لماذا ذهبت ورحلت عنا ومنعت عنا ثمارك؟ لقد افتقدناها كثيرًا. لا بد أن تأتينا بها مجددًا. أرجوك! فكل أغنياء البلدة يفتقدونك، حتى الفقراء ادخروا بعض المال ليشتروا من ثمارك!» لم أصدق ما سمعت.

ضحك فارس حتى دمعت عيناه، فقال خالد:

- ذهبت في ذلك العام إلى المكان الذي اشتريت منه تلك البضائع وأحضرتها إلى البلدة، وبعتها وربحت أضعاف ما دفعت. كانت أرباحًا جنونية! ثم فعلت هذا في العام الذي بعده، ولكن النعيم لا يستمر طالما هناك تجار ماكرون. علم التجار الذين ذهبوا معي أول مرة بالأمر؛ فأحضروا الثمار مثلي وفسدت التجارة.

- قصة مثيرة.

- نعم! أرأيت كم أدرَّ عليَّ دهائي؟ لا بد أن تتعلم. أعلمك هذا التاجر الذي تعلمت على يديه هذا؟

- لا. التاجر الذي علمني لا يتعامل بهذا الاسلوب.

- لن تتعلم شيئًا هكذا، يا فارس. أكاد أُجزم أن تاجرك لا يخرج من الجزيرة.

- لا. لقد ذهبت معه إلى الحبشة، وذهبنا إلى أغلب بلدات الحجاز في طريقنا إلى الشام.

- الشام؟ حقًّا الشام؟! لقد تذكرت. لقد رأيتك في الشام، يا عزيزي.

شعر فارس بدوار وخيبة أمل كبيرة، وقال وهو يحاول أن يتمالك نفسه:

- نعم، نعم. لقد تذكرت. لقد رأيتك في الشام.

٥

في الواحة البعيدة الهادئة التي تتقن كل نسائها الشعر، جلست قمر -فتاة في العشرين من عمرها أو أكثر، خمرية البشرة- تنظر في ورقة بيضاء بعينها السوداء الواسعة ووجهها الممتلئ الذي يشبه القمر في وقت اكتماله، والدموع حبيسة في عينها تفكر ماذا تكتب؛ فهي تشعر بمشاعر كثيرة ومتداخلة ومختلفة، ولكنها كتبت على أي حالها.

أين أنت، يا حبيبي

ذبت شوقًا إليك

هل ذهبت رغمًا عنك

أم أنك تقصد الرحيل

لما رأيتك، خفق قلبي

أحببتك حتى ذاب عظمي

ملأت حياتي زهور

لم أكن أتوقع منك الغياب

ليتني لم أرَك

ليتني لم أعرفك

ليتني لم أعشقك حتى لا أكتوي لهيبًا

أين أنت، يا حبيبي

أحببتك من كل قلبي

ولم أقل من قبلك كلمة حبيبي

لماذا تتلذذ بعذابي

هل هذا طبع الهوى

ليت شفتيَّ لا تذكران اسمك

ليتني لا أسأل عنك ولا تطرب أذني لاسمك

ليتني لا أهواك عشقًا

ليتني أراك ثانيةً ولا أحبك

ولكن هيهات؛ فأنا أحبك رغمًا عني

حبك مكتوب في طريقي

فتعالَ، يا نصيبُ طوعًا

فالعمر قصير حتى نحترق افتراقًا

يقولون الحب حلو

لا أنكر فقد ذقت من حلاوته

لكني ذقت الصبر أضعافًا

يقولون في الحب يحلو السهر

لا أنكر فقد سمرنا أيامًا وشهورًا فكانت أحلى من العسل

ولكني سهرت أبكي بعدها كل ليلة بسنة

كفاني رثاءً لحالي

إن لم تأتِ، فسأنساك وأحب غيرك

نعم سأفعل؛ فلم يأتِني من حبك إلا البكاء

أشعر أني أستحق أفضل من السهر والكدر

أشعر أني أستحق فارسًا يذوب فيَّ عشقًا

أستحق أن أرى القمر في أعين حبيبي

أستحق أن يراني أجمل من القمر

أستحق أن يكتب لي شعرًا

أستحق وأستحق الكثير

ولكن لا أستحق الهم والكدر

سأحب أول شاب يحبني وأتدلل عليه

سأكون معذبته، سأكويه بنار حامية مثلما كُويت

سأذيقه صبرًا مرًّا مثلما ذقت

انظر ماذا فعلت بي

جعلتني قاسية القلب

ولماذا أحدِّثك من الأساس

لماذا أذكرك من الأساس

فإن لم تظهر غدًا، فسأحب غيرك

لا إن لم تظهر الآن، فسأحب غيرك

حتى إن ظهرت، فسأحب غيرك

فأنا أخذت كفايتي من البكاء

يا قلبي، إياك أن تقسو

كفانا، يا قلبي شقاءً

سأحب من يحبني ويكون أمله قربه مني

لا استعلاء مني؛ إنما احتراس

فلا بد أن أكون صعبة المراس

يتعب حبيبي حتي يصل إليَّ

لأن قلبي ضعيف وإن رأى حبيبي، ضعُف واستكان

كفانا، يا قلبي بكاءً وانتظارًا وليبدأ من اليوم الهناء

فيا من لم أعد أذكرك، ليتني أراك ولا أذكرك!

٦

ظل فارس يبحث عن ماضيه حتى انتهت أشهر الراحة الستة دون طائل، فذهب إلى البلدة التي سيقابل فيها ممدوح وأعوانه وكانوا على الموعد؛ فرحب بهم ترحيبًا كبيرًا؛ فقد كان يعتبرهم أهله. أصر أن يمكثوا معه في البيت الجديد يومين يستضيفهم فيهم، ثم ينطلقون لرحلتهم. ودار حديث بينه وبين ممدوح.

- ماذا فعلت، يا بني، في الفترة السابقة؟ لعلك استرحت.

- لا راحة لي؛ فقد مررت بكل البلدات المجاورة أمكث في كل منها أيامًا وأيامًا ولم يعرفني أحد.

- لا تجزع، يا بني؛ فقدرك سيأتيك لا محالة.

- إذن، عليَّ الانتظار حتى أموت وحيدًا.

- لا، يا بني. عش حياتك بطريقة عادية واسعَ قدر ما استطعت، وسيأتيك قدرك أو ستُساق إليه.

انطلقوا في رحلتهم مثل العام الماضي إلى الحبشة يشترون البضائع ويبيعونها في طريقهم إلى الشام، وما يتبقى يبيعونه في الشام؛ ثم يشترون بضائع جديدة من الشام ويبيعونها في طريق الرجوع. وكذلك يذهبون في الأرض صعودًا وهبوطًا يركبون البحر ويصعدون الجبال ويهبطون الوديان؛ طاوين الأرض تحت أرجلهم يحركون ما سكن من الرمال، ويستظلون بشجر يتيم في الصحراء، ويسمرون في أماكن عمَّها السكون؛ ثم يرحلون عنها ليعمروا فضاء آخر.

ألف فارس تلك الصحبة، وكان كلما مر الوقت، تقرّب إليهم أكثر، وخاصة ممدوح الذي كان نعم الأب، فكان يرعاه دائمًا ويرشده. حاول فارس أن ينسى أي شيء يقلقه، ينسي أي شيء أخر غير فارس، ينسى أحزانه وهمومه على سطح الرمال

الناعمة التي تتطاير تحت أقدامهم. نسي فارس كل ما يقلقه وأحب هذه الحياة؛ أحب السفر والترحال، أحب ممدوح، أحب السمر ليلًا مع هؤلاء الشباب. حاول أن يبعد عن رأسه هذه التساؤلات الكثيرة المخيفة، واقتنع أنه لن يكون شيئًا غير فارس. لقد صار شخصًا طبيعيًّا، وعند انتهاء الرحلة أخذ نصيبه من المال وودع رفقاءه بحرارة، ثم ذهب إلى بيته الجديد الذي لم يبت فيه إلا ليالي معدودة، واستراح فترة طويلة شعر فيها أنه كان يعاني لأعوام. استراح، وأراح جسدة وعقله.

قبل انتهاء الأشهر الستة، جاء ممدوح ورفاقه وقالوا ستطول رحلتنا هذه المرة. بدؤوا رحلتهم بعد أربعة أشهر من الراحة، فعبروا البحر إلى الحبشة، وقال لهم ممدوح هذه المرة سنذهب إلى أبعد من الحبشة؛ يقولون إن أسعار الماشية داخل أفريقيا زهيدة جدًّا، فسافروا بعيدًا ورأوا بلادًا كثيرة.

وبينما هم في طريقهم، رأوا أناسًا يحملون ميتًا، ورأوا أمرأة يدفعونها أمام الميت وهي تقاوم، ثم حملوها وهي تبكي وتصرخ، فسألوا فقيل لهم هذا رجل مات وهذه زوجته تُدفن معه؛ فلا حياة لها من بعده بهذه السهولة! يا لجهل البشر! ألا يحق لها أن تحيا من بعده؟! ألا يحق لها أن تحب ثانيةً وتتزوج بآخر؟!

ومروا ببلدة ليست قريبة، فوجدوا ناسًا يحملون امرأة في الخمسين من عمرها أينما رحلت، ووجدوا رجال البلدة ينحنون أمام أي امرأة تمر أمامهم؛ فلما سألوا عن الاحترام الزائد للنساء قيل لهم «ولِمَ لا؟ فهي رمز الحياة، وهي منبت الأرض».

وكان حاكم البلدة امرأة، فظلوا مندهشين لهذا؛ فقص عليهم أهل البلدة قصة مفادها أنه منذ زمن بعيد كانت هناك حرب بينهم وبين قبائل مجاورة، فتجمع رجال قبيلتهم مستعدين للقتال مخلفين وراءهم نساءهم ليعتنوا بالأولاد والحيوانات وذهبوا ليهجموا على القبائل الأخرى، فعلمت تلك القبائل فأرسلت مجموعة من كل قبيلة إلى النساء العزل، فقتلوهم أجمعين. فلما علم رجالهم، رجعوا مسرعين، فلم يجدوا نساءهم ولا أطفالهم. وجاءت إليهم القبائل الأخرى

ليقتلوهم، فقضى فيهم كبير قبيلة أخرى ألا يزوجهم أحد بناته، وبذلك سينتهون حتمًا. كان حكمًا ماكرًا إلا أنه عندما رحلت جيوش القبائل الأخرى، رجع إليهم ثلاث نساء وبنتان كُنَّ يراعين بعض الماشية بعيدًا عن القبيلة، فاحتفلوا بهن وكانت إحداهن حاملًا، فتضرعوا أن يكون الجنين فتاةً، وأراحوا السيدة طوال فترة الحمل. وكان الرجال يصنعون كل شيء بلا خجل في خدمة نسائهم. وعندما حل موعد الولادة، كان المولود بنتًا جميلة، فاحتفوا بها جميعًا وظلوا يحافظون على نسائهم، ويزوجونهن أفضل رجالهم. كانوا يعتنون بالنساء والفتايات ويرعونهن أشد الرعاية؛ لأنهم أدركوا أنه من دونهم لا يكون لهم نسل ولا ذكرى في الدنيا ولا حياة.

رأى فارس الكثير والكثير؛ فمن يذهب بعيدًا، يرَ العجائب والغرائب. وكان يندهش كطفل صغير لم يرَ شيئًا من ذلك حتى أصقلته التجارب والرحلات؛ فكان كل يوم يزداد خبرة في الحياة عن اليوم الذي سبقه.

أنهوا رحلتهم في أفريقيا وذهبوا إلى الشام كالمعتاد ومعهم من غريب البضائع، فباعوا وربحوا ربحًا وفيرًا. وقص عليهم فارس قصة خالد الذي كان يخدع الناس بثمار الشباب، فضحكوا جميعا ونبههم ممدوح أن الأمانة مطلوبة دائمًا.

وزعوا أرباحهم وحان وقت الرحيل، لكن فارس لاحظ شيئًا غريبًا. كان ممدوح يبكي بشدة غير معهودة ويضمه بقوة، فقال فارس:

- ماذا حدث، يا أبتاه؟

- لا شيء، يا بني. سأفتقدك كثيرًا. اعتنِ بنفسك، يا بني، واحرص على أن أراك ثانيةً.

- لا تقلق، يا أبتاه. سأكون في انتظارك.

- سأشتاق إليك كثيرًا.

- وأنا كذلك، يا أبتاه.

- عِدْني، يا بني، أن تكون نعم الرجل الشجاع الذي لا يخاف شيئًا إلا الله، وألا

تدع الخوف والحيرة بداخلك يتحكمان فيك أبدًا؛ فالحياة دائمًا ما تكون كدرًا على الخائفين الحائرين.

- أعدك، يا أبتاه.

- سأراك، يا بني، إن قُدِّر لنا اللقاء. استودعتك الله.

- استودعتك الله، يا أبتاه.

اندهش فارس من هذا الوداع الغريب ورحل ممدوح والدموع في عينيه.

انتظر فارس رجوعهم وظن أن الفترة طالت، ولكنها لم تطُل. وعند الموعد، ظل فارس ينظر في الطرقات ليراهم وهم في طريقهم إليه، لكن كان لديه شعور غريب أنه لن يرى ممدوح ثانيةً. وذات يوم رآهم من بعيد، فتهلل وظهرت الابتسامة والفرح على وجهه وفي روحه، ولكن سرعان ما تسارعت دقات قلبه صعودًا وهبوطًا؛ لأنه لم يرَ ممدوح بينهم، فأبلغوه أن ممدوح قد مات.

انطفأ النور الذي كان يضيء حياة فارس. هموا بالرحيل، فودَّعهم فارس وقال لهم إنه لن يستطيع أن يذهب معهم وممدوح غير موجود بينهم.

اعتزل فارس الناس لفترة طويلة، ولكنه بعد المكوث فترة طويلة بلا عمل قرر أن يكمل حياته؛ عملًا بنصيحة أبيه الذي أوصاه قبل أن يرحل. وجد بعض التجار يعرفهم، فقال له أحدهم إنهم ذاهبون إلى بلاد النوبة ليأتوا بفاكهة لاعيان القبائل. كانت لفارس خبرة بعبور البحر والتعامل في بلاد أفريقيا، فقبل فارس أن يعمل معهم. وفي البحر راوده شعور بإنهاء حياته مجددًا، ولكنه رأى على سطح الماء وجه ممدوح، فتذكر وعوده له.

كان فارس يعمل بكل جد عسى أن ينسى فقدان ممدوح؛ يقود القافلة، ويفصل الفاكهة الفاسدة ويرميها بعيدًا، فكان أول من يستيقظ وآخر من ينام.

٧

كان فارس يمشي متهالكًا في الصحراء الشاسعة القاحلة التي لا زرع فيها ولا ماء. كان منهكًا، بالكاد يتنفس الهواء، ونفد ما معه من الماء قبل ساعات. كان يخشى أن يموت في الصحراء، وراودته أفكار كثيرة: هل سيُغمى عليه ثانية ثم يصحو لا يتذكر من هو مجددًا؟ ولماذا تركته القافلة خلفها؟ ألم يلاحظوا أنه غير موجود، أم أن حظه العاثر دائمًا في انتظاره.

رأى فارس صخرة عالية فاستظل بظلها. كان الهواء في ظلها لطيفًا على عكس الحرارة التي تشق الصدور في كل الصحراء. جلس فارس واستراح، ثم نام نومًا عميقًا، فرأى نفسه يمشي مجددًا في الصحراء والشمس قد صارت أشد حرارة، والعرق يتصبب من جبينه، فأخرج لسانه ليُبلّل شفتيه، فتذوق العرق الذي أشد ملوحة من ماء البحر. ثم إذا به يرى شيخًا كبيرًا يتعكز على عصاة مُولِيه ظهره، ويمشي ناحية الشرق. رأى فارس في يده شيئًا يلمع، فإذا هي قارورة أسطوانية الشكل لونها ذهبي وينساب منها الماء في قطرات متواصلة على الرمال، فناداه فارس:

- يا سيدي، يا سيدي!

لم يلتفت الشيخ لفارس ومضى في طريقه، فناداه فارس بصوت أعلى:

- يا سيدي، يا شيخ، يا عماه، يا سيدي!

فرد الرجل دون أن يلتفت قائلًا:

- أنا لست سيدك؛ فكلنا عبيد الله.

- أعطني بعض الماء، أرجوك. أكاد أموت عطشًا.

- لا ماء لك عندي.

- أرجوك، يا عماه. من فضلك أعطني بعض الماء.. قالها فارس وهو يحاول أن يركض ليلحق بالشيخ ونظره منصب على القارورة الذهبية.

- لا ماء لك هنا.

- أرى معك ماء في القارورة. أرجوك، يا عماه.

- هذا الماء ليس لك، وإن أعطيتك إياه، فلن يرويك.

- أرجوك، يا عماه! أعطني هذه القارورة.

قذف الرجل القارورة خلفه، فاستجمع فارس كل قواه وأمسك بها ووضعها على فاه. شرب فارس كثيرًا، ولكنه ازداد عطشًا، فشرب أكثر، فشعر بألم شديد في بطنه؛ فقال:

- ما هذا الماء؟! إنه لا يروي!

- ولكنه في قارورة من ذهب؛ فما رأيك فيها؟

- ماذا أفعل بالذهب وأنا لا أجد الماء؟ سأموت عطشًا.

- كيف لا تعجبك القارورة؟ إنها من ذهب خالص. إنها ثمينة جدًّا، يا بني. يمكنك أن تشتري بها بئر ماء.

- وأين تلك البئر التي أشتريها؟ إنني أريد أن أشرب وحسب. لا أريد ذهبًا.

ازداد الألم في بطن فارس، فألقى القارورة أرضًا. ثم فجأة تحولت القارورة إلى رمال، تناثرت حباتها في الهواء وسقط بعضها على الأرض.

قال فارس مستنجدًا

- أرجوك أعطني بعض الماء.

- أراك تركت القارورة الذهبية.

- لا حاجة لي بشيء. أحتاج إلى الماء وإلا مت عطشًا.

- لا ماء لك هنا. اتجه نحو الشرق.

- الشرق؟

- نعم، اتجه نحوالشرق؛ فالشرق دائمًا ما يروي.

رحل الشيخ بعيدًا بسرعة كبيرة غريبة وهو يردد «الشرق دائمًا ما يروي».

أفاق فارس من نومه العميق على وقع هذا الصوت في أذنيه، فنهض بسرعة ينظر نحو الشرق ولم يعلم إن كان ما حدث حلمًا أم حقيقة. همَّ بالمشي دون تفكير ناحية الشرق وكانت الشمس قد بدأت تميل نحو مغيبها، فكان يرى ظله يكبر أمامه كلما مضى إلى الشرق. وقبل غروب الشمس، رأى جبالًا كبيرة عالية لم يعهدها من قبلُ، ورأى بعض الطيور تذهب في اتجاه الجبال، فعلم أن هناك ماء، فأسرع لينعم ببعض منه. وكلما اقترب أكثر، رأى طيورًا أكثر فيزداد أمله ويسرع أكثر، ولكنه جوعان وعطشان لم يأكل منذ يومين ولم يشرب منذ يوم كامل، فظهر عليه الضعف الشديد ولم تعد قدماه تحملانه. حاول أن يمشي مستقيمًا، ولكن صورة الجبال كانت تهتز أمام عينيه؛ فلم يعلم إن كانت حقيقة أم سرابًا. وقع أرضًا، ثم تحامل على نفسه مجددًا ووقف ليمشي. مشى عدة أمتار ثم وقع مغشيًّا عليه.

٨

شم فارس رائحة جميلة، ففتح عينيه فوجد نفسه على سرير ناعم، ووجد فتاة بيضاء ذات عينين عسليتين وشعر أسود تضع يدها على جبينه، فسألها.

- أين أنا؟

- أنت هنا في الواحة، لا تقلق.

- أي واحة؟

- واحتنا. أهلًا بك. خذ بعض الماء، وهذا طعامك لا بد أن تأكله كله؛ فأنت قد ضعُفت من قلة الماء والطعام.

ثم قدمت له الفتاة طبقًا كبيرًا مزركشًا بألون جميلة متناسقة، عليه مختلف أنواع الفواكة الفاخرة.

شعر فارس بالخوف بعض الشيء وقال:

- أهذا حلم؟

ضحكت الفتاة وقالت:

- كُل طعامك واشرب؛ لأن الحكيم يريد أن يراك.

ابتسمت وقبل أن تخرج، سألها:

- من الحكيم؟

- حكيم الواحة.

- تقصدين شيخ القبيلة؟

- شيئًا من هذا القبيل.

- وأين أجده؟

- عندما تنهي طعامك، اخرج واسأل عن الحكيم وسيدلّك الناس.

- من أنتِ؟

- أنا الممرضة.

هجم فارس على الطعام الذي أمامه وأكله عن بكرة أبيه، وشرب من الماء الكثير. وكان مستمتعًا جدًّا؛ فالفاكهة كانت لذيذة حقًّا ولم يذق مثلها من قبلُ. حتى لونها أزهى وأبهى من الثمار التي كان يتاجر فيها، سواء من الحبشة أو من الشام.

بعدما أنهى طعامه، نظر حوله فوجد كل شيء حوله مختلفًا؛ طوالة وكرسيًّا. لم يرَ الكراسي إلا عند سادة القوم، والطاولة تكون لموائد الأعيان فقط. ما هذا المكان الغريب؛ فالطاولة ملونة ببهجة والكرسي مصنوع بإتقان. أما الحوائط، فصلبة قوية. تحسَّسها، فعرف أنها من حجارة صلبة. وينتشر في الغرفة بعض الورود الحية ليست مقطوفة، وإنما مزروعة في تربتها، وألوانها تبعث في النفس السعادة. كل شيء حوله غريب، فلم يعهد مثل هذا. من ألف الصحراء إن رأى شجرة أعجب بها، فما بالك إن رأى وردًا جميلًا مختلفًا ألوانه، تفوح منه رائحة تضفي في الروح الطمأنينة وتبعث الجسم على الاسترخاء؛ إنها الجنة!

شعر فارس برغبة كبيرة في استكشاف المكان، فخرج من الغرفة فإذا به يرى الجبال شاهقة أمامه في كل الاتجاهات ويرى في الجبال كهوفًا متراصة بالمئات، يخرج مهنا الناس ويدخلون؛ فنظر خلفه، فوجد أنه كان ينام في كهف أيضًا. وفي الجبال طرق ممهدة صاعدة وهابطة تمر أمام الكهوف، والطيور تطير بين الناس وبين الجبال، ورأى ماء يسقط من أعلى الجبل. تتبع الماء وهو يسقط، فإذا به ينتهي إلى بحيرة جميلة واسعة صافية بلون السماء، وتحوم حولها طيور من مختلف الأنواع والأشكال، طيور جميلة كبيرة وصغيرة، منها ما يزيد طوله عن طول الإنسان

ومنها العصافير الصغيرة. وتشكل الطيور مجموعات ومجموعات، كل حسب نوعه وحجمه ولونه؛ فثمة طيور سوداء وحمراء ورمادية وبنفسجية، وطيور مزركشة بأشكال وألوان لم يرها فارس من قبلُ. وعند نهاية البحيرة، ينتشر النخيل الطويل الذي يعانق السماء ومن خلفه تزداد كثافة الأشجار؛ أشجار تفاح وحقول للعنب وأشجار رمان وغيرها بعيدًا الموز. إنها أشجار لكل أنواع الفواكه، وهناك الكثير منها على مد البصر بين الجبال؛ كما توجد بعض الماشية ترعى في حشائش خضراء. يا له من منظر لا يوصف من شدة جماله! والناس كلهم في شغل عن هذا، كل في عمله؛ فهؤلاء يعملون بين الأشجار وغيرهم يحملون الثمار إلى مكان جمعها وآخرون يرعون ماشيتهم.

سرح فارس في جمال المنظر ونسي أنه كان مغمى عليه في الصحراء، ونسي كل شيء، ونسي أن يسأل عن الحكيم، ونسي موعده؛ فالانسان ضعيف أمام الجمال، ينسي عالمه أمام شيء جميل، ينسي همومه وأحزانه؛ فحمدًا لله على نعمة الجمال.

جاءته الفتاه وهو واقف كجذع شجرة صلب لا تهمه الدنيا؛ مأخوذًا بهذا المنظر، فقالت:

- أين كنت؟

- أنا هنا! رد ببلاهة

- الحكيم ينتظرك.

- آه، لقد نسيت الحيكم. آسف.

- هيا بنا.

- لقد أخذني المنظر. لا أكاد أصدق أن هذا المنظر حقيقي. يا إلهي، هذا المنظر خلّاب حقًّا! لم أرَ شيئًا مثل هذا من قبلُ. لقد سافرت كثيرًا وجُبت بلادًا كثيرة، ولكن هذا المكان رائع. لوكنت رسامًا، لرسمت آلاف اللوحات هنا. كل شيء هنا يستحق التأمل والإعجاب. أنتم محظوظون بلا شك لوجودكم في هذا المكان؛ فهذا المكان

يصعب وصفه. هل ترين كل هذه الطيور؟ هل ترين كل هذه الأشجار والنخيل؟ لا أصدق ما أرى، يا إلهي. شيء غير طبيعي، شيء خارق جميل في غاية الجمال. والغريب أن الناس لا يلتفتون لكل هذا الجمال! كيف تعملون أو تدخلون كهوفكم من الأساس، أجيبيني من فضلك.

- لا أفهمك.

- إنني أرى كل هذا الجمال وأعجز عن أن أفكر أو أن أفعل شيئًا غير أن أتأمل هذا الجمال؛ فكيف تستطيعون أن تحيوا بشكل طبيعي في وسط هذا المنظر الخلاب.

- هذا المنظر هنا من يوم ولادتي، كل يوم أراه؛ فليس بغريب علينا.

- هذا نكران للنعمة وخطأ كبير.

- أتعلم ما الخطأ فعلًا؟

- ما هو؟

- أنك تترك الحكيم في انتظارك.

- أي حكيم؟

- يا إلهي! حكيم الواحة الذي ينتظرك.

- آه، عذرًا، لقد نسيت مجددًا. هيا بنا.

أسرع فارس صاعدًا الجبل، فاستغربت الفتاة وقالت:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى الحكيم.

ضحكت الفتاة وقالت:

- الحكيم في الأسفل.

توقف فارس وقال:

- إن كان الحكيم كبير الواحة، فلا بد له أن يكون في الأعلى.

- لا، حكيم الواحة يسكن في كهفه في الأسفل.

- اعذريني. كل هذا غريب. كل شيء هنا يأخذ عقلي؛ فالمنظر خلاب يأخذ العقل.

قاطعته وقالت:

- بهذه الطريقة، سنستغرق وقتًا طويلًا حتى نصل إلى الحكيم.

- آه، الحكيم! هيا بنا.

تحركوا في اتجاه الأسفل، فمروا بكهف كبير يختلف كثيرًا عن باقي الكهوف؛ يبدو أكبر بكثير من الآخرين، كما أن بابه ملون بألوان زاهية جميلة. توقف فارس فظهرت على الفتاة علامات اندهاش من توقفه وقالت:

- لماذا توقفت؟

- أليس هذا بمسكن الحكيم؟

- لا، هذه قاعة الواحة وفيها ما نملك من كتب، ويجتمع فيها الحكيم بمجلس الحكماء.

- إذن لا بد أن يكون كهف الحكيم أكبر من هذا وأفخم.

- هيا بنا! الحكيم يقطن في الأسفل في الكهف رقم ٢٣.

- أهذا رقم مميز عندكم؟

ضحكت الفتاة كثيرًا وقالت:

- ولِمَ قد يكون رقم ٢٣ مميزًا؟

- لأن الحكيم يقطن فيه.

- أنت غريب جدًّا.. قالتها باسمةً ثم أكملت.. هيا بنا! لقد تأخرنا كثيرًا.

- حقًّا، لقد تأخرنا. هيا بنا.

ظل يتابع كل شيء حوله وجذبه ملبس الفتاة التي أمامه؛ فهو بسيط جدًّا يتكون من قطعتين، وهو واسع بعض الشيء، ولكنه حسن المظهر، لونه أحمر فاتح مائل للون الورود. ولاحظ أيضًا أن جميع النساء يلبسن تقريبا الألوان نفسها وملابس مشابهة إلى حد بعيد، فأحب أن يعرف ما سر هذا فسألها:

- أرى أن النساء جميعًا يلبسن تقريبًا الملبس نفسه هنا.

- إنه ليس نفسه بالضبط، ولكن الألوان متقاربة. النساء هنا يحبن اللون الوردي واللون الأبيض واللون الأحمر.

- إنه لون جميل. لديكن ذوق جميل، ولكن أشعر أن الشكل تقريبًا واحد.

- هذا لأن الذي يصنع الملابس للواحة أسرة واحدة.

- كيف هذا؟

- هنا أسرة تمتهن الحياكة، وتصنع الملابس لكل الواحة.

- آه، لهذا السبب الملابس متشابهة. حتى الرجال هنا يلبسون ملابس متشابهة أغلبها مائل للزرقة.

- نعم.

- لم أعرف اسمك.

- اسمي نبيلة.

- اسم جميل حقًّا.

- شكرًا لك.

- أين تقطنين، يا جميلة؟

- اسمي نبيلة، وليس جميلة.

- اعذريني؛ فالوصف طغى على الاسم، يا نبيلة.

- أراك تغازل! يا لك من جريء! قالتها بابتسامة خفيفة.

- آسف إن كنت تعديت حدودي، ولكنك لم تجيبي سؤالي. في أي كهف تقطنين؟

- ولماذا تريد أن تعرف؟

- لا أعرف أحدًا غيرك في الواحة، فاذا احتجت إلى شيء، فإلى أين قد أذهب؟

- من الممكن أن تسأل أي أحد في الواحة؛ فالناس هنا متعاونون جدًّا. ولأجيبك عن سؤالك، فأنا أسكن في الكهف رقم ٢٣.

ضحك فارس كثيرًا وقال:

- وكأني سأصدقك.

اندهشت نبيلة من ردة فعله وكانوا قد وصلوا إلى الكهف المطلوب، فقالت:

- ها قد وصلنا.

توقف فارس أمام الكهف، فإذا به كهف متواضع جدًّا، بابه أصغر من باب الكهف الذي يقطن فيه. ثم دخل إلى الكهف فوجد كل شيء بسيطًا ومتواضعًا جدًّا.

ظهر رجل طويل القامة نحيف قليلًا يرتدي ملابس ككل الرجال من المزارعين والعمال الذين رآهم فارس بالخارج وهو في طريقه.

رحب الرجل بفارس وقال:

- أهلًا وسهلًا بك، يا بني. تفضل بالدخول!

ظل فارس مندهشًا من بساطة الكهف ومن بساطة ملبس الرجل، بينما أشار الرجل لنبيلة لتأتي ببعض الطعام والشراب؛ إكرامًا للضيف، ثم نظر إلى فارس فوجده لم يجلس، فقال:

- أهلًا بك، يا بني. لماذا ما زلت واقفًا هكذا؟ تفضل بالجلوس.

- أهلًا وسهلًا بك، يا عماه. شكرًا لك.

- ما الذي جاء بك إلى هنا، يا بني؟

- أتيت لأرى الحكيم.

ضحك الرجل وقال:

- نعم، يا ولدي. أنت هنا لترى الحكيم، ولكن ما الذي أتى بك إلى واحتنا؟

- لا أعرف. كنت تائهًا في الصحراء ونفد الماء وأغمي عليَّ، ثم استيقظت، فوجدتني هنا.

- أفهم ذلك، ولكنك لم تسمع بهذا المكان من قبلُ؟

- أستميحك عذرًا، يا عماه.

- تفضل، يا بني.

- أنا أتيت هنا لأقابل الحكيم. لقد أرسل إليَّ ليقابلني، ولا أحب أن أتأخر على رجل في مثل منصبه. من الممكن أن يعتبرها إهانة وهو الرجل الذي يضيفني في واحته.

- يا بني، لا بد أن تفهم شيئًا. لا أحد يضيفك هنا. هذه الواحة ليست ملكًا للحكيم ولا لغيره.

- كيف تجرؤ أن تتحدث عن حكيم الواحة هكذا؟ ألا تخاف أن يأمر بطردك؟

- مهلك، يا بني. أنا الحكيم.

- مؤكد أنك تمزح.

- لا، يا بني. أنا الحكيم.

- لا أصدق هذا. لا بد أن يكون هذا حلمًا هو الآخر. متى تنتهي هذه الأحلام؟! أنا أحمق فعلًا. لا مكان على الأرض في مثل جمال هذا المكان. في البداية يقول رجل اذهب إلى الشرق، فذهبت إلى الشرق. وبعدها هذه الواحة السحرية،

وحاكمها مثل خادمها لا فرق بينهما. فعلًا هذا حلم آخر.

حينها دخلت نبيلة بالطعام والماء، فأسرع فارس وأخذ الماء منها ثم قال:

- لا بد أن أفيق من هذه الأحلام.

صبَّ الماء كله على رأسه، فاندهش الحكيم واندهشت نبيلة في صمت، ثم نظر إليهما نظرة خجل ونظر إلى الماء الذي أغرق رأسه وملابسه وقال:

- اذن أنا لا أحلم، ونحن في هذه الواحة الساحرة حقًّا. أنت الحكيم حقًّا وتسكن الكهف رقم ٢٣. وهذه ابنتك وتعمل ممرضة؛ صحيح؟!

ضحك الحكيم كثيرًا وكذلك نبيلة، فقاطعهم فارس قائلًا:

- أصحيح هذا؟

- نعم، صحيح، يا بني. أرجوك اهدأ.

- شكرًا لك، يا سيادة الحكيم. والآن فلنكمل اجتماعنا.

- وأنت مبلول هكذا، يا بني؟

- لا يهم. الكثير من الأشياء الغريبة قد حدثت لي في الأيام القليلة الماضية؛ فهذا ليس غريبًا جدًّا. أرجو أن تعذرني؛ فهذا المكان أقرب للأحلام منه إلى الواقع. وفي الفترة الأخيرة كنت أهذي كثيرًا، فلا أعلم الحقيقة من السراب.

- أعذرك، يا بني.

- شكرًا لك.

- والآن ما الذي أتى بك إلى هنا، يا بني؟

- كنت تائهًا في الصحراء. ولا أعلم كيف أتيت إلى هنا. لا بد أن أحدًا أحضرني إلى الواحة.

- وكيف تهت في الصحراء؟

- كنت مسافرًا مع قافلة وفقدت أثرها في الصحراء.

- وكيف حدث هذا؟

- إنها قصة طويلة.

- لا يهم، يا بني. عندي متسع من الوقت.

- حسنًا، سأقصها عليك. كنا في رحلة من بلاد الحجاز إلى بلاد الحبشة والنوبة. كنا هناك لنشتري الثمار والفواكه لوجهاء الحجاز. لم نكن هناك للتجارة، ولكننا كنا نشتري لحساب هؤلاء الوجهاء وذهبنا وعبرنا البحر.

- هل أعجبك البحر، يا بني؟

- نعم، أعجبني كثيرًا.

- البحر له سحر خاص.

- أعبرت البحر من قبلُ، يا سيادة الحكيم؟

- لا، يا بني. لم أعبر البحر، ولكني قرأت عنه كثيرًا. لا تقل سيادة الحكيم، بل قل «يا حكيم».

- لا يصح هذا.

- هذا ما يصح، يا بني. لا أحد هنا سيد لأحد؛ فكلنا سواسية.

- لك ما شئت، يا سيادة الحكيم.

- ماذا قلت لك؟ قل «يا حكيم».

- لست معتادًا من أصحاب المعالي على ذلك.

- أصحاب المعالي! ما هذا الكلام؟

- كنت مرة في رحلة مع بعض التجار إلى أفريقيا، وزرنا قبيلة هناك، فلم يكن شيخ القبيلة يجيب إلا أن تفخم الكلام وتقول أصحاب المعالي وسيادة شيخ القبيلة؛ أو شيئًا من هذا القبيل. حتى شيوخ قبائلنا لا يسمحون بذلك، بل لا بد للتقديم بذلك.

- يا بني، هنا الأمر مختلف. والآن قل «يا حكيم». لا بد أن تعتاد عليها. قل، يا بني، «يا حكيم».

- «يا حكيم».

- هذا أفضل، والآن أكمل، يا بني.

- بعدما عبرنا البحر وذهبنا إلى مقصدنا، اشترينا البضائع ورجعنا، ولكن كان عليَّ دائمًا أن أفصل الثمار التي أوشكت على أن تفسد وأرميها بعيدًا في الصحراء ثم تهت.

- كيف حدث هذا؟

- أمصرّ أن تعرف كل شيء؟

- نعم، يا بني.

- في صباح اليوم الذي تهت فيه، استيقظت مع أول شعاع للشمس وذهبت وتفحصت الثمار، فكان منها ما أوشك أن يفسد، فجمعته وهممت برميه بعيدًا عن الطريق؛ ولكني كنت جوعان جدًّا وكانت الثمار على وشك أن تُرمى على أي حال. وكان طعامنا طوال الرحلة من الخبز اليابس والتمر؛ فخطر لي أن آكل من الثمار ما أجده يصلح للأكل قبل أن أرميه، فأخذت قارورة من الماء وذهبت بعيدًا وأكلت قدر ما استطعت. بعدها شعرت بتوعك شديد في المعدة، وذهبت بعيدًا جدًّا لأقضي حاجتي. ومر كثير من الوقت وأنا أقضي حاجتي، ثم رجعت فلم أجد أحدًا. خالجني شعور بأن هذا حدث لأنني أكلت تلك الثمار أو أني سرقتها، ولكني لم أسرقها. كانت على وشك أن تفسد والله شهيد على ما أقول. ثم أسرعت في أثر القافلة، ولكني لم ألحق بهم؛ فقد رحلوا بعيدًا ولم أرَ لهم أي أثر. ومشيت أبحث عن مصدر للماء؛ لأن الماء الذي كان معي قد نفد، فلم أجد، فنمت ورأيت أحلامًا كثيرة. وبعدها مشيت في اتجاه الشرق لاعتقادي أني سأجد الماء هنا. ولم أشعر بالذي حدث إلى أن أستيقظت على سرير في هذه الواحة. هذا كل شيء، ولكني أؤكد أنني لم أسرق الثمار.

- حسنًا، يا بني. إنني أثق بك، ولكني لا بد أن أتأكد من شيء.

- تفضل، يا حكيم.

- لا بد أن تعرف، يا بني، أن هذه الواحة لا يعرف بوجودها إلا أهلها؛ فمن الغريب أن يأتينا ضيف مثلك، إذ لم يحلَّ بنا ضيوف منذ زمن بعيد. ألم يخبرك أحد بمكان الواحة؟

- لا، لم يخبرني أحد.

- أمتأكد، يا بني؟

- كل ما في الأمر أني كنت نائمًا وحلمت أن شيخًا كبيرًا يقول لي أن أتجه إلى الشرق؛ فالشرق دائمًا ما يروي، فمشيت في اتجاه الشرق.

- أمتأكد، يا بني أنه حلم؟

- أعتقد أنه حلم.

- حلم أم حقيقة؟

- في الحقيقة، أنا كنت في حالة لا تسمح لي أن أفرق بين الحلم والواقع، ولكن أعتقد أنه حلم.

- أصدقك، يا بني. ما اسمك؟

- اسمي فارس.

- نعم الاسم! لا بد أنك شجاع؛ فلكل شخص من اسمه نصيب.

- شكرًا. آمل أن أكون كذلك. هل تسمح لي بسؤال، أيها الحكيم؟

- تفضل، يا بني.

- هل يوجد حاكم في هذه الواحة؟

- ما معنى حاكم، يا بني؟

- شخص يأمر وينهى في الواحة.

- لا، يا بني. لا يوجد من يأمر وينهى هنا، يا بني.

- إذن كيف تسيرون أموركم هنا؟

- بالتشاور، يا بني.

- بالتشاور.

- نعم. علينا أن نأخذ رأي الناس وأولهم مجلس الحكماء، ونرى الأفضل للواحة وأهلها ونأخذ القرار على هذا الأساس. والآن دعني أقل لك شيئًا. ستعيش بيننا عشرة أيام ضيفًا معززًا مكرمًا، وبعدها لا بد أن نجتمع لنري ماذا ستفعل؛ فهذه قواعد الواحة بشأن الضيوف، ولكن حاول أن تكون ودودًا وحسن السلوك، ولا تفعل شيئًا يجبرنا على تغيير المعاملة. إنني أرى أنك نبيل الخلق.

- شكرًا لك، يا سيدي الحكيم.

- «يا حكيم» فقط، يا بني.

- شكرًا لك، «يا حكيم» على كرمك.

- هذا ليس فضلًا مني. أنت ضيف الواحة ولست ضيفي أنا.

هم الحكيم بالوقوف ليحيي فارس وقال:

- إذن سأرك بعد عشرة أيام، يا بني.

- شكرًا لك، يا حكيم.

خرج فارس وهو يتفحص الكهف ولا يزال مندهشًا من تواضع الكهف؛ فشيخ قبيلة البلدة التي كان يقطن هو فيها صنع لنفسه بيتًا فسيحًا يكفي القبيلة كلها، ولكنه يمكث فيه وحده هو وأسرته وأقنع أهل قبيلته أنهم لا بد أن يدفعوا ثمن ذلك البيت؛ لان واجهته شيء يشرفهم. أما هذا الحكيم، فيلبس ملبسً عادي جدًّا ويقطن في كهف كأي خادم في الواحة.

كان فارس في حيرة كبيرة يفكر كثيرًا في هذه الواحة الساحرة وحكيمها وابنة

الحكيم كيف تعمل ابنة الحكيم ممرضة، وكيف يكون هذا منزل الحكيم وملبسه، وما هذه البساطة في الكلام؛ كل ذلك وهو في طريقه إلى كهفه، الكهف رقم ١٧٧ الذي رأى رقمه وهو خارج منه. سرعان ما تلاشت الحيرة من رأسه؛ لأنه تاه في جمال الواحة الواسعة وسحر جوها الذي يمتلئ بعطر الزهور، وانتشار الطيور الملونة التي تغني وتشدو في كل مكان. وكلما مر به أحد من سكان الواحة، حيّاه وقال:

- حللت أهلًا، يا ضيفنا العزيز.

غمرت السعادة فارس؛ فكل شيء هنا جميل حتى وجوه الناس باسمة، فكان يردد في خلده قائلًا:

- لا أريد أن أخرج من هنا أبدًا.

٩

- كيف ترى الضيف، يا والدي؟

- أراه شخصًا جديدًا في الواحة، يا نبيلة.

- شخصًا جديدًا؟ إنه شخص غريب.

- إنه ضيف، يا بنيتي.

- أعني أتراه طيبًا أم شريرًا؟

- لم أرَ أيًّا من علامات الشر عليه.

- ماذا إن قرر أن يرحل، أسيخبر عن مكان الواحة أحدًا ممن يعرف؟ أخشى أن تخرب الواحة.

- لا تخشَيْ شيئًا صنعتِه في خيالك، يا بنيتي.

- أليس من الممكن أن يتسلّل ويرحل ليلًا ويخبر من يعرفهم عن الواحة، فيأتوا ويفسدوها؟

- نعم، من الممكن، يا بنيتي؛ ولكن أليس من الممكن أن يكون طبيعيًّا وينعم بالحياة هنا وألا يرحل؟ أليس من الممكن أن يرحل ولا يخبر أحدًا؟ من الممكن أن تحدث أشياء كثيرة، يا بنيتي.

- نعم، ولكن لا بد أن نحسب حساب كل شيء.

- نعم، يا بنيتي، ولكن لا تضعي الاحتمالات السيئة فقط في اعتبارك. خذي في الاعتبار الاحتمالات الأخرى.

- وإذا حدث الاحتمال السيئ بأن قرر أن يتركنا ويرحل، أستقضي عليه بالحكم المحتوم، أم ستأخذك به شفقة وتضيع الواحة.

- أنا أخشى على الواحة أكثر منك، يا نبيلة. واعلمي أن الحكم المحتوم ليس من اختصاصي وحدي. لا بد أن أستشير لجنة الحكماء. ولن تضيع الواحة أبدًا؛ فنحن نحميها كما حماها أجدادنا وأباؤنا من قبلُ. لا تقلقي، يا بنيتي.

- عِدْني أنك لن تتخلف عن الحكم عليه بالحكم المحتوم إن ظهر منه خطر علي الواحة.

- لا تخافي هكذا، يا بنيتي. لن أتهاون في المحافظة على الواحة وأهلها. ولكل حادث حديث.

- أترى أنه سيكون عند حسن الظن؟

- أرى ذلك، يا بنيتي. لا تقلقي.

- أعانك الله، يا والدي، في الحفاظ على الواحة.

١٠

في قاعة الواحة، اجتمع لجنة الحكماء وقال أحدهم:

- لا أرى سببًا لاجتماعنا، أيها الحكيم.

قال هذا الحكيمُ عارف، أحد أعضاء لجنة الحكماء.

- يا حكيم عارف، لقد طلبت الاجتماع بكم بشأن الضيف.

- يا حكيم، واحتنا طبقت قواعد استقبال الضيوف.

- فعلًا، هذا ما حدث.

- ما كان عليك أن تضيع وقتك ووقتنا؛ فالقواعد واضحة، يا حكيمنا. للضيف عشرة أيام ضيافة لا يعمل فيها ولا يتعب، بل يأكل ويشرب وينعم، وله حسن المعاملة ما دام استحقها. وإن ظهر منه عكس ذلك، يُحكم عليه بالحكم المحتوم. جميعنا يحفظ القانون.

- هذا بشأن الضيافة، فماذا إن أراد الرحيل؟

- إن أراد الرحيل، فالحكم المحتوم موعده. وإن أراد المكوث، فلنجتمع ونرى ماذا يحدث.

- إذن نلتقي بعد عشرة أيام لنحكم في أمر الضيف الجديد.

١١

- صباح الخير، يا فارس.

- صباح الخير.

- أما زلت نائمًا؟

- هل تأخر الوقت؟

- أتركك لنومك وأعود لاحقًا.

- لا عليكِ. تفضلي بالدخول، يا نبيلة. فقط امنحيني دقائق.

ذهب فارس وغسل وجهه. كان يلبس ملابس مخصصة للنوم وجدها على السرير ليلة أمس، وكانت فضفاضة ومريحة جدًّا. ارتدى ملابسه العادية وقال:

- لقد تأخرت كثيرًا. لم أنم مثل ذلك في حياتي.

- النوم الهادئ نعمة.

- نعم. لم أنم منذ سنوات مثل ذلك. المكان هنا يبعث على الراحة والطمأنينة.

- إنني سعيدة أن الواحة تعجبك.

- هذه جنة وليست واحة. لقد أُغرمت بها.

- أرى أن صحتك قد تحسنت.

- شكرًا لك. لقد اعتنيتِ بي كثيرًا.

- لا تشكرني؛ فهذا عملي.

- كيف تكونين ابنة حيكم الواحة وتعملين؟

- وكيف أحيا دون عمل أؤديه؟

- أنتم تدهشونني حقًّا.

- لا شيء يدعو للدهشة.

- آسف؛ لأني عاملتك وعاملت والدك بهذه الفظاظة أمس. لقد كنت سخيفًا جدًّا.

- لا عليك، فأنت غريب.

- أنا فعلًا مندهش! كيف يسكن حكيم الواحة في كهف مثل أي كهف آخر؟ وكيف يكون ملبسه هكذا وابنته تعمل أيضًا؟

- لا شيء يدعو للدهشة. هذا ما اعتدنا عليه. عمل الحكيم هنا وظيفة وليس منصبًا، بل هي وظيفة كأي وظيفة في الواحة. وعمي مزارع وحاصد للمحاصيل، وكلاهما لهم أهمية كبيرة في الواحة؛ ولكن وظيفة الحكيم حساسة بعض الشيء. ولذلك توضع لها معايير واختبارات وتشاورات بين أهل الواحة، ويتم اختيار الحكيم بعناية شديدة.

- اختيار واختبار! هل تختارون الحكيم؟

- نعم، ولكن لا بد له أن يتعدى الكثير من الاختبارات أولًا.

- ما هذه الاختبارات؟

- اختبارات كثيرة وخطيرة، أولاها متاهة الخوف والأسرار.

- ما هذه المتاهة؟

- دعنا من هذا الحديث. سأصيبك بصداع بالكلام عن واحتنا. والآن لا بد أن تأكل؛ فقد اقترب موعد الغذاء ولم تأكل شيئًا. وهذا ليس جيدًا لصحتك. إليك هذه الفاكهة، لقد وضعها موزعو الطعام على باب كهفك. ألا تكره الفاكهة لأنها كانت سببًا في ضياعك في الصحراء؟

- لا. أنا أحبها كثيرًا؛ فالفاكهة هنا ألذ ما يكون، ولكن من وضع الطعام خارج الكهف؟

- هذا فرد من موزعي الطعام.

- هذه مهنة هنا؟

- نعم، هنا يوجد الكثير من المهن.

- ومن ينظم كل هذا؟

- لا نحتاج من ينظمنا. نحن لسنا أطفالًا صغارًا لكي نحتاج لمن ينظمنا.

- ولكن كل هذا يديره الحكيم وحده؟

- لا. الواحة تُدار بسكانها. أما القرارت المصيرية، فتكون لأبي مع لجنة الحكماء بالتشاور مع أهل الواحة.

- من لجنة الحكماء.

- هم الحكماء السابقون.

- ظننت أن منصب الحكيم مدى الحياة.

- لا. هذه الوظيفة بالتدول كل عشرة أعوام.

- لا أصدق مدى النظام الذي تعيشون فيه.

- هذه حياتنا ألفناها هكذا. كل منا يعرف دوره ويؤديه، ولا يفرط فيه حتى تستقيم الحياة في الواحة.

- ما هذا الوعي؟! أهو عند ابنة الحكيم فقط؟

- لا، بل هذا ما نتعلمه من آبائنا ومعلمينا.

- أيوجد هنا معلمون؟

- نعم.

- الحياة هنا مثيرة جدًّا. أريد أن أعرف كل شيء عن الواحة.

- لِمَ لا تحدثني عن أهلك؟

- إنني لا أعرف أهلي. كل أهلي كان رجلًا تاجرًا، كان كل أهلي في الدنيا.

- أتشتاق إليه؟

- جدًّا؛ لأني لم أحب أحدًا أكثر من حبي لهذا الرجل؛ فهو من أرشدني في هذه الحياة.

- لا بد أنك تشتاق لرؤياه.

- أشتاق إليه إلى أبعد الحدود.

- متى تذهب إليه؟

- حينما ينتهي أجلي.

- أميت هو؟

- نعم، تُوُفِّي منذ عام.

- أشعر بالأسى من أجلك.

- لا عليك. أنا أحب أن أتذكره وأذكره في كلامي.

- وماذا عن أبنائه؟

- لا أعرف من أهله أحدًا.

- لقد أحزنتني كثيرًا.

- لا. بل أنا أشكرك على ذلك. ستعجبين حينما تعرفين أنني أجلس ليلًا لأرى شبحه أو روحه، إن كانت هذه الأشياء موجودة حقًّا. ورغم أني لا أؤمن بها، أريد أن أرى أي شيء يشبهه؛ ذلك الوجه الدائري المتورد وعيناه الزرقاء الجميلة ولمسته الحنونة. لقد كان غريبًا في كل شيء، بل لم يَنْتَمِ إلى الصحراء بأي حال من الأحوال.

- لقد حبَّبتني فيه.

- لو رأيتِه، لأحببتِه حقًّا.

- ماذا كان اسمه؟

- كان اسمه ممدوح.

- اسم غريب وجميل.

- نعم، ولكنه فعلًا كان ممدوح الطبع والهيئة. لا أعلم أن كان هذا اسمه أم كان لقبه. كل ما أعلمه أن الحياة أصبحت قاسية جدًّا من بعده.

- لا بد لك من بيت تحنُّ إليه أو شخص آخر تشتاق إليه.

- أتريدينني أن أرحل؟!

شعرت نبيلة بالإحراج لكثرة أسئلتها فقالت:

- بالطبع لا. أردت فقط أن أتحدث معك، وأن أطمئن على صحتك.

- شكرًا جزيلًا لكِ على عنايتك بي.

- هذه وظيفتي؛ فالواحة تعطيني أجرًا على ذلك.

- أجرًا!

- نعم، أجرًا.

- أتعمل بنت حكيم الواحة بأجر؟!

- ولِمَ لا؟ وما الفرق بيني وبين أهل الواحة؟ أنا عمل أربع ساعات في اليوم وأتلقى أجري على ذلك.

- العمل هنا لأربع ساعات فقط!

- نعم. وهل يحتاج الإنسان إلى أكثر من أربع ساعات عمل حتى يلبي احتياجاته من المأكل والملبس وغيرهما؟

- هذا فوق المعتاد؛ فكل هذه الثمار والملابس تُوزَّع على أهل الواحة لقاء عمل أربع ساعات يوميًّا.

- نعم؛ فالقواعد هنا تقول إن ما ينبت في الواحة ملك للواحة وأهلها. ولا أحد بعينه يملك شيئًا، ولكن عليك أن تعمل لتأخذ نصيبك.

- وماذا عن حالة المرض؟

- في حالة المرض، يأخذ ساكن الواحة المريض حقه من الطعام والشراب وكل شيء حتى يُشفى ويعود إلى العمل.

- عندي سؤال صعب.

- تفضل!

- ماذا لو قال شخص إنه لا يريد أن يعمل؟

- لا بد من معاينة صحته أولًا.

- وإن وجدتموه سليمًا.

- لا بد حينها أن يُعرض على الحكيم، ويُذكّره الحكيم بأهمية دوره في الحياة في الواحة.

- وإن لم يقتنع، فماذا يُفعل به؟

شعرت نبيلة أنها دخلت في بعض المحظور فقالت:

- لقد تكلمنا كثيرًا جدًّا، واستغرقت الكثير من وقت عملي. لا بد أن أعاين مرضى آخرين.

نهضت مسرعة خارج الكهف ورحلت.

فكر فارس أن الأمر ليس بهذه البساطة والسهولة؛ فالواحة تسير بنظام مثالي، ولا شيء مثالي في هذا العالم؛ فكيف يضبطون هذا النظام في الواحة؟ لا بد لهم من بعض العقوبات، وإلا كان كل الذي رآه نفاقًا وتمثيلًا لتحسين صورة الواحة أمام الضيوف. لا بد أن هناك أسرارًا خلف هذا النظام في الواحة.

١٢

«لقد مات أخوكم مصعب الذي يقطن الكهف رقم ١١٤».

استيقظ فارس على وقع هذا الصوت وهو يتكرر.

«لقد مات أخوكم مصعب الذي يقطن الكهف رقم ١١٤».

قالها المنادي ست مرات، وفي كل مرة يتغير اتجاه الصوت.

انزعج فارس لسماع هذا الخبر؛ فليس من الجيد أن تُفيق على خبر مثل هذا. ثم تذكر ممدوح وقال:

- أسأل الله، يا ممدوح، أن يرحمك!

غسل وجهه ولبس ملابسه وأكل أفطاره، وشعر بالفضول أن يرى ماذا يفعل هؤلاء الناس في جنائزهم. خرج من كهفه، فوجد الناس يعملون وكل شيء يسير بشكل طبيعي؛ ولكن الناس ارتسمت على وجوههم علامات الحزن والأسى، ولكن هذا لم يمنعهم من الترحاب بفارس؛ فكل من يقابله كان يقول له:

- أهلًا بالضيف.

استوقف فارس أحدهم ورد عليه تحيته قائلًا:

- أهلًا وسهلًا بك! ما اسمك الكريم؟

- اسمي عصام.

- عندي سؤال.

- تفضل.

- متى تكون الجنازة؟

- الجنازة عادةً ما تكون عندما تكون الشمس بين الظهر والمغيب.

- شكرًا لك.

- أهلًا بضيفنا العزيز.

تجول فارس في الواحة، فوجد فيها الكثير من المزارعين وجامعي الثمار، ولكنه لم يجد أحدًا يصطاد الأسماك التي تقفز في البحيرة؛ بل وجد بعض الناس يرمون بعض الحبوب والطعام، فتسبح الأسماك نحوها. لماذا يُطعمون الأسماك إذن؟ وكذلك الطيور، فهي آمنة في الواحة ولا أحد يقربها. وكان كل شخص من سكان الواحة في عمله من المزارعين وجامعي الثمار.

كانت هناك مدرسة للأطفال، ولكنه لم يرَ مبنى لهذه المدرسة التي تقع بين الأشجار وشاطئ البحيرة ولا يحُدّها أي سور. حاول أن يُلقي نظرة من بعيد على المدرسة، ولكنه لم يشاهد أي شيء، بل شاهد معلمة تُدعى قمر ولم يشاهد أي شيء آخر. أخذه جمالها ووجهها الخمري وشعرها الأحمر. ثمة شيء مميز فيها، فانجذب إليها أشد الانجذاب. وظل يراقبها لفترة طويلة وفكر أن يذهب ليكلمها، ولكن جو الموت كان يخيم على المكان، ففضَّل أن يكلمها في يوم آخر.

وعندما مالت الشمس بين الظهيرة والمغيب، كان ذلك موعد الجنازة كما أخبره عصام. ذهب فارس إلى مكان تجمع سكان الواحة، الذين وقفوا في صمت رهيب في ساحة في الواحة. كانوا يقفوا مُطأطئي الرؤوس ودموعهم تنحدر بحذر على وجناتهم. حملوا ميتهم وتحركوا إلى الأمام، وكان الحكيم ولجنة الحكماء يتقدمون الجنازة خلف الميت، وكان كل أهل الواحة في الجنازة لم يبقَ منهم أحد في بيته. ظلوا يتحركون في صمت رهيب حتى خرجوا من الواحة إلى الصحراء والشمس من خلفهم كأن ظلالهم تسبقهم إلى المقابر. وعلى مرمي البصر، كان هناك الكثير من المقابر المنظمة. وعندما وصلوا، هموا بوضع الميت في قبرة وعلا صوت الحكيم يقول:

- ادعُوا لأخيكم؛ فإنه قد مات، فلا ينفعه بعد عمله إلا دعاء صالح.

عمّت المكان همهمة كثيرة، ورفعوا جميعًا أكُفّهم إلى السماء في دعاء خاشع صادق، وبعد بدقائق قال الناس في صوت جماعي:

اتعظي، يا نفسُ، فإن الموت آتٍ

ولن يُعطي فرصة للندم على ما قد فات

وسَعِد حينها من يفعل الخيرات ويجتنب المنكرات

ويلقى ربه سعيدًا ويُجزى بأفضل الجنات

ثم كرروا ما قالوا ثلاث مرات، وبعدها قالوا بصوت أعلى:

اتعظي، يا نفسُ، واتعظ، يا حكيم

اتعظي، يا نفسُ، واتعظ، يا حكيم

فكلنا ميت وتحت التراب مرقده

حكيمنا وغفيرنا في التراب مرقده

ولا ذهب ولا مال تحت التراب ينفعه

ومن يعصِ حيًّا، يَلقَ الحكم المحتوم

ومن مات عاصيًا، يَلقَ نار السموم

اتعظي، يا نفسُ، واتعظ، يا حكيم

كان الموقف مهيبًا، فهزت هذه الكلامات قلب فارس وامتلكت وجدانه، واندهش من جرأة الناس على مخاطبة الحكيم بهذه اللهجة وهذا الصوت العالي؛ فكان صوتهم يعلو وينظرون إلى الحكيم في عينيه وكان الحكيم يبكي في آخر الأبيات.

تذكر فارس كلمة الحكم المحتوم، فعزم أن يعرف ما هذا الحكم الذي يحكمون به على من يعصي في الواحة، ومن يشكل خطرًا على أهلها.

ظلت تلك الأبيات تتردد في أذن فارس. كان يومًا عصيبًا حقًّا؛ فالموت له رهبة في القلوب. تخيل فارس أن يكون الميت ممدوح، فبكى بكاءً شديدًا حتى إن أهل الواحة أقبلوا عليه ليواسوه واستغربوا بكاءه ونحيبه؛ لأنه لم يكن يعرف مصعب. كانت فرصة له ليُخرج الحزن الذي في قلبه على ممدوح، الرجل الذي يعتبره أباه. لم يحضر جنازته، لم يبكِ عليه منذ مات. بكى بكاءً شديدًا وجاءه الحكيم فواساه وأخذ بيده حتى رجعوا إلى الواحة وقد حل حينها الغروب، فذهب وارتاح في كهفه.

١٣

في صباح اليوم الرابع، استيقظ فارس مبكرًا والهمة تعلو وجهه يريد أن يبدأ اليوم مبكرًا ويراقب كل شيء في الواحة التي غمرته بالدهشة في كل وقت، وأينما ذهب، يحاول أن يجد أجوبة لكل ما يشغل باله.

كيف يعيش هؤلاء الناس؟

أهم سعداء حقًّا أم يدَّعون ذلك؟

كيف يحافظ الناس على النظام في الواحة؟ وما سر هذا السلام الدائم؟

والسؤال الذي يحيره ويتكرر في ذهنه كثيرًا: ما الحكم المحتوم؟

خرج فارس من كهفه عازمًا أن يجد إجابات لكل أسئلته. نظر إلى الواحة من أعلى وقال في نفسه يا لجمالها! لو علم بها ملوك مصر أو ملوك الحبشة، لأتوا إليها مُسرعين. الجو رائع ونسائم عليلة تهز أوراق الشجر، وطيور مختلفة الألوان والأشكال تغني وتدور حول البحيرة الزرقاء في جمال ودلال، ومياه الشلال تسقط من أعلى الجبل على طرف البحيرة؛ يا له من منظر يبعث على الحياة!

الغريب أن لا أحد يعرف هذا المكان. لا أحد سمع به ولو في الأساطير! كيف حافظ أهل الواحة على سريتها؟! حق لهم أن يحافظوا على سر هذا المكان؛ فجمال كهذا كجوهرة ثمينة لا بد من إخفائها بعيدًا عن أعين الناس؛ خوفًا عليها.

شعر فارس أن الواحة تأسره بجمالها، ولكنه يريد أن يحصل على بعض الأجوبة؛ لذا همَّ بالنزول إلى أسفل والاختلاط بالناس والحديث معهم، فوجد أحدهم صاعدًا فحيّاه قائلًا:

- أهلًا بالضيف العزيز.

وكانت الابتسامة واسعة حقيقية على وجهه، فقال فارس في نفسه هذا الرجل سعيد مع أنه يحمل جوالًا من الثمار على ظهره وهو ذاهب لتوزيعها أعلى الجبل على الكهوف! إن عمله شاق جدًّا، ولكنه سعيد حقًّا. ما سر هذه السعادة في الواحة؟

خطرت بباله فكرة أن يبدأ رحلته من مكان تخزين الفواكه وتوزيعها، فسأل المارة فدلّوه عليه. وعندما وصل إلى المخزن، وجد عمالًا يجردون محصول اليوم ويفصلونه، ويضعون كل صنف في مكان مخصص، ووجد رجلًا أصلع طويل القامة عريض الجسم ليس ممتلئ البطن؛ فقد تخيل أن مسؤول المخزن سيكون ذا بطن كبيرة. اقترب من الرجل، فبدأه الرجل بالسلام:

- أهلًا بضيفنا العزيز.

- أهلًا بك.

- هل وصلك إفطارك؟

- نعم، شكرًا لك.

- هذا عملي؛ لا شكر على واجب.

- يا لكم من أناس طيبين!

- شكرًا لك، يا فارس، على شعورك النبيل.

- تعرف اسمي؟!

- ومن لا يعرف اسم ضيفنا العزيز!

- شكرًا لك. ما اسمك؟

- اسمي غلام.

- غلام!

- لم أفعل شيئًا سيئًا ليدعوني هكذا.

ضحك الرجلان قليلًا ثم قال فارس:

- عملكم شاق، أليس كذلك؟

- ليس بالضبط.

- كيف هذا؟ إنكم -كما أرى- تفرزون المحاصيل والثمار، ثم تقسّمونها وتوزعونها على أهل الواحة أعلى الجبال، ولا بد أن تكونوا دقيقين، وإلا جاع أحد في الواحة.

- نعم. نحن نقوم بكل هذا العمل، ولكن الأمر ليس بهذه الصعوبة.

- أنتم تدهشونني، يا أهل الواحة، دائمًا.

- كيف هذا؟

- جميعكم سعداء ولطفاء، والجميع يعمل ويحب العمل ويحب النظام.

- وما الغريب في هذا؟

- الأغرب هو أنكم تجدون هذا طبيعيًّا!

- وكيف تعيشون أنتم بالخارج؟

- نعيش في فقر. وأغلب الناس لا يجدون قوت يومهم، وأغلب الناس غير راضين وغير سعداء.

- كفى! كفى! ما هذا؟! كيف يجوع إنسان والشجر في كل مكان والبحر ممتلئ بالأسماك والسماء تمطر ماءً عذبًا. الله خلق هذه الأرض لتُسعِد من فيها، والإنسان هو سيد هذه الأرض، فكيف يشقى سيد في أرضه.

- الإنسان سيد؟!

- نعم، الإنسان سيد هذه الأرض. جعله الله العاقل الوحيد على هذه الأرض ليعمرها ويستغلها في مصلحته ومصلحة مجتمعه.

- لا أصدق أنكم من بني آدم مثلنا.

- نحن من بني آدم مثلكم، ولكنكم تغيرتم على ما أعتقد، يا فارس.

- لا، أنتم من تغيرتم؛ فبنو آدم ليسوا كذلك. ألا تعلم أن قابيل قتل هابيل في بادئ الحياة؟

- ألا تعرف عن أبناء سيدنا وأبينا الأول إلا هذه القصة. إنهم من عمروا الأرض وأنجبوا كل هذه البشرية. وقصة قابيل وهابيل لم تكن تُحكى إلا لنأخذ العبرة منها ونتعظ، ولا نحسد ولا نحقد، ولا نقتل. هذا هو مغزاها، لا لنستدل بها على أن الإنسان حسود شرير وقاتل.

صمت فارس قليلًا وحاول أن يغير مجرى الحوار لعله يجد بعض الإجابات عن أسئلته:

- حقًّا، يا غلام، أصبت! ولكن قل لي ألا تملّ من عملك ومن هذه الحياة الرتيبة ولو قليلًا؟!

- نعم، أملّ قليلًا من عملي. هذا في بعض الأيام، ولكن من قال لك إن حياتنا رتيبة؟!

- أن تعمل عملًا كهذا كل يوم، أليس رتيبًا؟!

- لماذا تختصر حياتي في عملي؟ ولماذا تحتقر عملي؟

- لا تفهمني خطأ.

- إذا عرفت مدى أهمية عملي هذا في الواحة، فستعرف أنه ليس بالعمل الحقير.

- أعلم هذا، ولكن ألا تملّ التكرار؟

- نعم، تأتي بعض الأيام التي أملّ فيها، ولكن عندي أشياء كثيرة في حياتي غير عملي.

- مثل ماذا؟

- أنا أب لبنتين جميلتين، ولي زوجة وأب وأم وإخوة أُمضي معهم أوقاتًا

سعيدة جدًّا. وفوق هذا أنني رسام أهوى الرسم وأعمل فيه بعد عملي هذا.

- رسام! حقًّا؟

- نعم.

- ماذا ترسم؟

- أرسم كل ما يحلو لي.

- إنه لشيء رائع!

- نعم. فإذا مللت من عملي قليلًا، أذكّر نفسي بأهمية عملي، وأروِّح عن نفسي مع أهلي، وأمارس هوايتي كل يوم؛ ولكن أخبرني. هل لك من هوايات، يا فارس؟

- لا، ليس لديَّ أي هوايات.

- ماذا تعمل، يا فارس؟

- تاجرًا.

- ولكن لِمَ لا تجد شيئا تحبه ويلهمك وتنمي موهبتك فيه إلى جانب عملك كتاجر؟

- لا أعرف كيف، فليس لي هوايات.

- لا عجب أنك تمل الحياة سريعًا.

- أكلُّ أهل الواحة لهم مواهب وهوايات؟

- الأغلب، نعم.

- وكيف يعرفون مواهبهم؟

- لا بد أن تزور المدرسة وتتعرف على ذلك بنفسك. المدرسة هناك على الشاطئ. اذهب سريعًا؛ لأنهم سيُنهُون دراستهم بعد ساعتين تقريبًا.

- بعد ساعتين فقط.

- نعم، تفتح المدرسة هنا أربع ساعات فقط كالعمل.

- تذكّرت! لقد قالت لي نبيلة شيئًا كهذا، ولكني لم أصدق.

- هيا! لا تضيّع وقتك. اذهب إلى المدرسة وسترى كل شيء.

رحل فارس عن غلام وعلامات الاستفهام والتعجب تتقافز فوق رأسه. كيف يعمل هؤلاء الناس أربع ساعات فقط؟ هل ما زلت في غيبوبة؟ هل ما زلت أهلوس؟ وظل يتساءل ويتعجب هكذا حتى تعثر في حجر في الطرق، فتدحرج قليلًا ثم وقف ونفض التراب من على ملابسه، وقال إذن أنا لا أحلم ولا أهلوس.

وعندما وصل إلى المدرسة، وجد مجموعات صغيرة من الأطفال تلتفّ حول -على ما يبدو- مدرساتهم؛ ولكنه رأى شيئًا استوقفه. كانت المدرسات في صمت هادئ يراقبنَ ما يفعله الأطفال، وكل طفل يفعل شيئًا مختلفًا عن الآخرين؛ فأحدهم يلعب بالرمال والآخر يرسم لوحة والأخرى تصنع شيئًا لا يعرفه من أوراق الشجر.

اعتقد أن المدرسات غير مهتمات بتعليم هؤلاء الأطفال؛ فإنهنّ لا يعلّمنَهم شيئًا ولا يزعجنَ أنفسهنَّ بالحفاظ على النظام في فصولهنَّ. لا شيء، فقط يتركنَ الأطفال يصنعون ما يريدون من الأشياء التي تحلو لهم. أيكون هذا تعليمًا؟! ظل يراقب هذا الأمر لفترة، ولكن انتبه لوقوف مدرسة أمسكت باللوحة التي كان يرسمها طفل، ثم قالت:

- أعجبتني رسمتك كثيرًا، يا سعد. أنت كل يوم ترسم أفضل من قبلُ. أترسم في البيت أيضًا؟

فرد الطفل بكل حماس:

- نعم، أرسم طوال الوقت؛ فأنا أحب الرسم جدًّا.

أمسكت المدرسة اللوحة الذي رسمها الطفل وقالت:

- انظروا، يا أحبابي! رسم زميلكم سعد منظرًا خلابًا للواحة؛ فالشمس مائلة

للغروب خلف الجبال، والشجر يميل مع الشمس أيضًا كأنه لا يريد رحيلها. أعجبتني كثيرًا، يا سعد. إلى الأمام دائمًا، يا بني، فستصبح رسامًا عظيمًا.

كررت المدرسة ما فعلت مع كل الأطفال؛ ترى ما فعلوا وتُثني عليهم ثناءً جميلًا وتعطيهم بعض النصائح الصغيرة. وكانت السعادة تغمر الأطفال وكان الحب الشديد لمدرستهم يظهر على وجوههم، وكذلك كان يظهر على فارس الإعجاب والانجذاب لهذه المدرِّسة؛ فهي قمر التي رآها أمس ولم يجد وقتًا مناسبًا حتى يتحدث إليها. أما الآن، فسيذهب ليستفسر عن المدرسة. اقترب فارس منهم، فذهبت إليه قمر ووقفت أمامه في صمت واندهاش، فقال فارس.

- جئت لأسأل بعض الأسئلة عن المدرسة.

- أهلًا بضيفنا.

- الكل هنا يعرفني.

- نعم. مرحبًا بك، يا فارس. كيف لي أن أخدمك؟

- عندي بعض الأسئلة.

- تفضل!

- ماذا تعلمون الأطفال هنا؟

- نحن نعلم الأطفال أن يكتشفوا مواهبهم ويكونوا على طبيعتهم، مع تعليمهم الحساب والتاريخ وبعض علوم الفلك وقيم الحياة.

- تعلمونهم الكثير.

- لا. نحن لا نعلمهم الكثير. نحن نعلمهم القليل، وهم يتعلمون أكثر مع أنفسهم.

- ولكني لا أرى أنكم تعلمونهم الحساب أو شيئًا من هذا القبيل.

- هذه الأمور لا تأخذ وقتًا في تعليمها؛ فنحن نعلمها لهم في أثناء ممارستهم

لمواهبهم، ونفرد لها وقتًا فقط عند اللزوم؛ فعمليات الجمع والطرح التي تناسب عمرهم لا تأخذ وقتًا طويلًا إذا كانوا مستعدين لذلك. المهم أن يتعرفوا على مواهبهم وينموها.

- وكيف تتعرفون على مواهبهم؟

- نحن نترك لهم المجال ليفعلوا ما يريدون، وحينها نعرف المجال الذي من الممكن أن يبرعوا فيه؛ فالموهبة شيء فطري. فإذا تركت الطفل على طبيعته ولم تُثقل عليه بالنهي والتوجيه، تظهر موهبته جليّة.

- وكيف تنمونها؟

- نترك له المجال لممارستها في أغلب الأوقات، ونعطيه الدعم ونوفر له البيئة التي يستطيع فيها أن ينمي موهبته.

- أنتم تذهلونني. كيف عرفتم كل هذا؟

- عرفنا من آبائنا وأجدادنا.

- كيف هذا؟ كل شيء هنا له نظام ممتاز. كيف وصلتم إلى هذا كله؟

- لهذا الأمر قصة طويلة.

- من فضلكِ، أتطلع لسماعها.

- ولكن عليَّ العودة للعمل مع الأطفال.

- متى تقصين عليَّ هذه القصة.

- ما رأيك أن نتقابل هنا قبل المغيب؟

- فكرة سديدة.

- إذن على موعدنا. إلى اللقاء.

- آسف، لم أعرف اسمك.

- اسمي قمر.

- اسم جميل.

- شكرًا لك.

- إذن ألقاك عند المغيب، يا قمر.

تابعها فارس وهو يرحل بعيدًا، وظل يراقبها من بعيد. ثمة شيء يجذبه إليها، وقلبه ظل يخفق طوال حديثهما. شعر أنها قدره، بجمالها الأخاذ وعينيها الجميلتين ووجهها الخمري الدائري الذي يشبه القمر في تمامه. لم ينجذب لأي امرأة منذ أن أصبح اسمه فارس. انتظر إلى موعد المغيب على أحر من الجمر.

١٤

دخلت غرفتها والمشاعر تتملكها وكتبت:

لقد رأيته اليوم

لقد رأيت من أمله في قربه مني

عيناه تشعان إعجابًا بي

ينظر إلى كمن ينظر إلى جوهرة ثمينة

حينما أتكلم يراقب شفتيَّ

رأيته ونظراته في مقلتيه

قلبي قال لي إنه هو

أهو أنت في روح جديدة

أم أنك اختفيت في أيام بعيدة

لماذا أذكرك وأنت عندي في مقام النسيان

أم هو من ذكّرني بك

أم أنت هو متخفيًا وراء إعجابه

يا ربي، لا أطيق عذابًا

فقد تجرعت منه نصيبي

عقلي يقول لي كوني حذرة

مع الحذر لا تتكرر الآلام

ولا تسهري الليالي وتعُدِّي الأيام

وقلبي يقول افتحي له بابًا

فلمثله لا تُغلق الأبواب

جاءنا والشوق في عينيه

دعينا نذق من الحب حلاوته

بعد الصبر الذي ذقناه

فلا حال تدوم لحي

فكيف يدوم لنا الهجر والنسيان

فلا بد لنا من فرحة

عسى الفرحة أن تكون على يد فارس مشتاق

١٥

قبل المغيب، خرج فارس من كهفه على عجل وكان يمشي والابتسامة تعلو وجهه والفرحة تملأ صدره. لم يشعر هذا الشعور من قبلُ، لم يجرب الحب، لم يجرب أن يذهب إلى لقاء من يحبها. وهل يعقل أن يحب المرء من أول نظرة؟ وهل يعقل أن يرى الإنسان شخصًا ويقول هذا هو نصيبي من الدنيا، هذا هو الذي سأكمل معه حياتي؟ ما هذه القوة الجبارة التي تجذب شخصًا إلى شخص آخر تجعله يربط مصيره به؟ إنها فعلًا قوة جبارة تأسر قلب حبيب لحبيبه ولو كان من أول نظرة. هذا ما كان يعتقده فارس. اعتقد أن للحب سلطانًا عليه. ولِمَ لا؟ فهو في أسعد أيام حياته. أم أنه له قلب طفل لم يَعِ من الحب شيئًا؟ فعمره الواعي في الدنيا لا يتعدى ثلاثة أعوام، بل هو فعلًا كطفل صغير لا يعرف تجارب سابقة.

هذا اليوم هو الأفضل في حياته؛ لأنه تكلم مع قمر. لم يصدق أنه كان يقف أمامها، وبعض كلماتها تتردد بصوتها العذب في أذنيه وكأنها كانت تغني له.

وصل فارس إلى شاطئ البحيرة، ولكنه لم يجد قمر. انتظرها بعض الوقت فلم تأتِ! راودته مخاوف من أنها لن تأتي، وخشي أن يكون قد بنى من الأمل قصورًا من الخيال تذهب مع أول ريح تهز أورارق الشجر. دق قلبه قلقًا وقد حان وقت الغروب ولم تأتِ قمر، فقال في نفسه سيحل القمر ولم تظهري، يا قمر.

وإذ بقمر تأتي من بين الشجر والجو مضاء بشفق الغروب وهي ترتدي ثوبًا أنيقًا جدًّا، بالرغم من بساطته بدت كأميرة متواضعة. استقبلها فارس قائلًا:

- ظننتكِ لن تأتي.

- لقد أعطيتك موعدًا، فكيف أخلفه؟

نظر في عينيها وحاول أن يكتشف إن كانت تبادله الشوق أم لا، فلم يستطيع؛

فهناك مشاعر مختلطة، مشاعر لا يظهر منها شيء واضح. فحينما يكون القلق والخوف، يظهر الحب على استحياء. قال لها:

- إنني سعيد جدًّا أنكِ جئتِ.

- شكرًا لك. لا تنسَ أني وعدتك أن أقص عليك قصة واحتنا.

- نعم. إنني متطلع جدًّا لسماعها.

- هيا بنا نجلس!

جلسا على صخرتين متقابلتين على شاطئ البحيرة تحت نخلة طويلة وبعض الطيور تجلس كَسْلى بعد تعب النهار بجوارهم.

- من أين نبدأ، يا فارس؟

- من البداية.

- إذن، فقصة واحتنا تبدأ من قديم الأزل، يقصها علينا آباؤنا دائمًا وقد قصها عليهم آباؤهم، وكذلك إلى بداية الأحداث. كانت هنا في هذه الواحة خمس أسر تعيش في هناء وسعادة وخير وفير. وكانت الثمار كثيرة والخير يعم الجميع ويفيض، فكانوا يمشون في الواحة، وعندما يجوعون، يقطفون بعض الثمار ويأكلونها ويصطادون بعض الأسماك ويأكلونها. ولم تكن هناك أي مشكلة؛ فالطعام يكفي الجميع. ومع تعاقب الأيام، تزوجوا وتكاثروا، فكانت ذرية كبيرة لكل أسرة وأصبح في الواحة خمس عائلات كبيرة جدًّا، وكانوا قد اعتادوا الغوغائية في حياتهم؛ من يرد طعامًا، يذهب ويحضره من على الشجر أو من البحر ويأكل بكميات كبيرة تفيض عن حاجته. شعرت كل عائلة من الخمس عائلات أن الثمار والطعام قد بدأت تقل، وأنها لا بد أن تأخذ النصيب الأكبر من الواحة أو أن تطرد العائلات الأخرى منها، فعم الطمع والجشع واستقوى كل منهم على الآخر بعائلته؛ إلا عائلة واحدة كانت مسالمة وتريد أن تحيا في سلام. تجمعت كل عائلة لتبحث الأمر وكان من بين العائلات رجل ماكر، فقال لعائلته:

- سنضمن أن تكون الواحة لنا وحدنا، ولكن اتركوا الأمر لي وأطيعوني.

وعرض عليهم خطة فأعجبتهم. وبعدها ذهب الرجل إلى كبرى العائلات الأخرى وقال لهم:

- كلنا نعلم أن عائلتنا وعائلتكم الأحق بالواحة؛ فلِمَ لا نتّحد ونُخرج الباقين منها، فننعم بها وحدنا.

فوافقوه وقالوا كيف هذا؟ فقال لهم إنه يمتلك خطة محكمة. قال لهم:

- هناك ثلاث عائلات أخريات، سنترك العائلة المسالمة الآن ونتفرغ لأصغر العائلتين الأخريين عددًا، وأخبرهم بباقي الخطة.

وبالفعل تجمع أفراد العائلتين وذهبوا إلى العائلة المقصودة وهجموا عليها، وحينها تدخلت العائلة الكبيرة الأخرى فأخبروهم أنهم يُخرجون هؤلاء الناس من الواحة فهم غير جديرين بالعيش فيها، وأنهم لا يقصدون الشر؛ فتركوهم يقضون على هذه العائلة عن بكرة أبيه. وبعدها تفرغوا للعائلة الكبيرة ذات العدد الأكبر، ولكنهم كانوا متحدين يفوقونهم عددًا وعتادًا، فهجموا عليهم حتى هزموهم. أما العائلة المسالمة، فلم يعد لها أثر؛ فقد رحلت دون حرب ودون أدنى جهد من الآخرين؛ إذ استيقظوا يومًا فلم يجدوهم. وكذلك غرَّتهم أنفسهم وقال الرجل الماكر لعائلته لقد آن الأوان لتكون تلك الواحة لنا فقط.

والغريب أن العائلة الأخرى كان يعمها الشعور نفسه، فالتقت العائلتان وقالتا سنحارب حتى ننعم بتلك الواحة؛ فلا أحد يستحقها غيرنا. واتفقت العائلتان على أن يكون أفراد العائلة المهزومة عبيدًا عند العائلة الأخرى، أو أن يرحلوا من الواحة.

دبت الحرب بينهما وإضمار الشر، ولكنهم كانوا متساوين في الغدر؛ فعندما أحس أحد الفريقين أنه سيُهزم، أحرق الواحة حتى لا ينعم بها الآخر. كانت تلك نياتهم جميعًا. احترقت الواحة وعمها الدخان، وماتت أغلب الأسماك في البحيرة

من قلة الهواء وهربت كل الطيور ودمرت جميع الأشجار. ثم توقف القتال حين لم يعد هناك شيء ليقاتلوا من أجله؛ فقد انتهت الحياة في الواحة وعمها الصمت، فخرجوا من الواحة جميعًا من كثرة الدخان، والتزم أغلبهم الصمت وظل الدخان يتصاعد لأيام. ولما اشتد بهم الجوع والعطش، رجعوا إلى الواحة وبكوا من هول ما رأوا؛ فالأشجار كلها متفحمة والأسماك نفقت وغطت سطح البحيرة ولم يعد طائر واحد فيها الواحة، فكانت الواحة بلا حياة. بحثوا عن أي شيء ليأكلوه، فلم يجدوا. وكان هذا أول درس تعلمه الأولون؛ أن الطمع والجشع عواقبهما وخيمة، وأن الحب والإيخاء يجلبان الخير والنماء. مات أغلبهم جوعًا وصاروا يأكلون أي شيء تدب فيه الحياة. ثم اختاروا رجلًا حكيمًا من بينهم، لا على أساس العائلة أو القبيلة، بل على أساس العقل والحكمة؛ فقد تعلموا بقسوة أنه لا يصح إلا الصحيح. وبعد هذا القحط، أشار عليهم الرجل الحكيم أن يُزيلوا آثار الدمار وينظفوا الأرض، وقال لهم إن موسم المطر سيحل قريبًا، وعندها لا بد أن نحافظ على ما ينبت من النباتات والأشجار حتى ننتفع بثمارها. كان هناك القليل من الأشجار التي لم تحترق كليًّا، وكانت ثمارها مؤهلة لتنمو في موسمها؛ فما عليهم إلا الانتظار والانضباط، وأبلغهم أن على الجميع أن يعملوا، وأن الطعام سيُوزَّع بعد جمعه بالتساوي.

وجاء المطر بعدما نظفوا الواحة، فخرجوا جميعًا يحتفلون به، ولكن الاحتفال لم يستمر؛ لأن المطر كان يسقط غزيرًا على غير المعتاد، واستمر أسابيع. حتى إنهم ظنوا أن هذه لعنة عليهم من سوء ما اقترفوا، وظلوا في كهوفهم يتضورون جوعًا ولا يخرجون إلا للبحث عن بعض الطعام خارج الواحة حتى انتهى المطر، وبعد أيام بدأت الأرض تنبت بعض العشب والنباتات، وبدأ الشجر يثمر من جديد، وبدأ بعض صغار السمك بكسر السكون الذي عم سطح البحيرة. والتزم الناس بما قاله الحكيم وعاشوا على القليل حتى نمت الواحة من جديد، وأثمرت طريقة الحياة الجديدة وتتابع الحكماء على الواحة. وكلما تعلموا شيئًا وظهر لهم نفعه، أخذوا يعلمونه لأبنائهم ويقصون عليهم قصة دمار الواحة حتى يومنا هذا. هذه القصة

جزء كبير من دروس التاريخ التي نعلّمها لأطفالنا في المدارس.

- يا لها من قصة ملهمة استمتعت بها جدًّا، يا قمر! أعجبني جدًّا أسلوبك في السرد. أنتِ تقولينها وتنفعلين بكل كلمة فيها.

- ليس أنا فقط، بل الجميع هنا ينفعل مع هذه القصة؛ فهي تاريخنا.

- هل أبوح لكِ بسر.

- إذا أردت.

- أتمنى كثيرًا أن أكون وُلدت هنا.

- الإنسان لا يختار مكان ولادته، ولكنه يختار أين يعيش.

- صدقًا، لا أريد أن أرحل من هنا.

- حقًّا.

- نعم، لا أريد أن أرحل. ليس لأن الواحة جميلة فقط.

- وما السبب الآخر؟

- أنتِ، يا قمر! عندما رأيتك، تغير الكون في عيني. ولا أتوقف عن التفكير فيك.

صمتت قمر ونظرت له نظرة تعمها الريبة والحب معًا، فقال:

- أنا فعلًا أحبك، يا قمر. لا أصدق أني انجذبت إليكِ بمجرد أن رأيتك. وأظن أنك غير مصدقة أيضًا، ولكن هذا الذي حدث. أريد أن أحيا بقربك هنا بقية عمري.

- حقًّا.

- نعم. أعني هذا من صميم قلبي؛ فأنا اليوم أسعد ما أكون في حياتي.

- لا أنكر أني تفاجأت بكلامك، يا فارس.

- اعذريني على جرأتي، ولكني أقول ما بقلبي حتى لا أندم على عدم قوله لاحقًا.

- أنت جريء حقًّا.

- آمل أن يكون هذا شيئًا جيد.

- إنه شيء جيد.

- الحمد لله.

- لا أخفي عليك. أنا أُكِنُّ لك إعجابًا، يا فارس، ولكني أخشى أن تتركني وترحل. لا أريد أن أكرر جروح الماضي.

- لقد تعلمت من ممدوح، أبي، أن أرمي الماضي خلفي.

- يا لها من نصيحة جميلة! ولكن أين لي بالنسيان؟

- النسيان سيأتي عندما تنشغلين بحاضرك عما يقلقك في الماضي.

- أصبت.

- أحب أن أمكث في هذا المكان وأحب أكون بجوارك.

- إذن لا ترحل.

- ولكن هناك بعض الأشياء التي أريد أن أفهمها في الواحة.

- ماذا تريد أن تفهم؟

- سؤال يُؤرّقني كثيرًا.

- اسأل.

- ما الحكم المحتوم؟

ظهرت على قمر علامة اندهاش وقلق ثم قالت:

- أنت ضيف هنا، لا يحق لك أن تعرف هذا الحكم.

- ولكني حقًّا أريد أن أعرف.

- لا يمكنني إخبارك.

- لا تخافي.

- لن تفعل شيئًا يجعل الحكيم يحكم عليك بهذا الحكم.

- ولكن هذا الغموض يقتلني.

- هل تحب هذا المكان؟

- نعم، أحبه جدًّا.

- إذن لا تشغل بالك بما قد يخيفك منه.

- حسنًا، لن أفعل.

- التفت لما يعجبك فيه وتأمله واستمتع.

- إذن سألتفت إليك وأستمتع بجمال وجهك.

احمر وجه قمر وظهر الخجل على وجهها، فقال لها فارس:

- هذه الساعة التي أقضيها معك من أجمل ساعات عمري. ليتني تهت في الصحراء من زمن بعيد حتى أراك! ليتني أعرفك منذ صغري!

- كفاك! لقد أحرجتني كثيرًا بكلامك هذا.

افترقا بعد ذلك وذهب كل منهما إلى كهفه وقلبه معلق بالآخر، واتفقا أن يكررا اللقاء كل يوم عند المغيب؛ فما أحلى لقاء الأحبة!

فارس في كهفه يتذكر قمر ولمعان عينيها ووجها الخمري الجميل وشعرها الأحمر، يتذكر جلستها أمامه وحديثها له. لم يُرد لتلك الساعة أن تنتهي؛ فكل لحظة من لحظاتها كانت حلمًا جميلًا. نام فارس والابتسامة علي وجهه.

أما قمر، فلم تشعر بالسعادة مثلما شعرت بها اليوم. لم تهنأ هكذا منذ سنوات، وتمنت أن يكون فارس هو نصيبها؛ ثم كتبت:

ما ألذ الحب في أوله!

فمنذ زمن لم أذقه

غيرت الطعم المر في قلبي

وأبدلته بالشهد والعسل

فيا من مال قلبي له وتعلق به

فلتكن أنت حبيبي وملاكي

فلتكن كما قلت، يا من سعده في جواري

فلتكن أنت الحبيب الذي لا يرحل

فلتكن أنت الفارس الأوحد

فلتكن أنت من يرسم بسمتي

فلتكن دقات قلبي

فلتكن من يمسح دموعي إن بكيت

فلتكن من يسعدني حين أحزن

فلتكن حبيبي فلتكن ملاكي!

١٦

في صباح اليوم التالي، كان هناك صراخ وصوت مرتفع ورجل يقول:

- لا أريد أن أعمل. ولماذا أعمل بينما يمكنني أن أحوّل التراب إلى ذهب. هذا جنون أن أحيا حياة الفقراء وأعمل وأكدَّ والتراب يجري بين يديَّ ذهبًا. لا أريد أن أعمل، ولن يرغمني أحد على شيء.

أسرع فارس ليرى ما يحدث، فوجد شابًّا يمسك به رجلان قويان طويلا القامة، وقد تجمع أهل الواحة وهم يضربون كفًّا بكف. لطالما شعر فارس أن هناك أشياء كثيرة مخفية في هذه الواحة، ولطالما شعر أن هناك شيئًا غريب. ولا بد أن يكون هناك شيء غريب في هذه الواحة؛ فهذا الجمال والبهاء والسعادة ليس كل شيء. حاول فارس أن يعرف ماذا يحدث، فوجد نبيلة فقال لها:

- ماذا حدث، يا نبيلة؟

- لا تشغل بالك، يا فارس.

- سمعت هذا الرجل يقول إنه لا يريد أن يعمل وذكر أمرًا آخر عن التراب والذهب.

- نعم، هذا الرجل لا يعمل منذ أسبوع. ويريد أن يخرق نظام الواحة.

- وما قصة التراب والذهب؟

نظرت نبيلة إلى فارس ثم رفعت وجها إلى أعلى تقلب عينها في السماء ثم قالت:

- بعض الناس يعتقدون أنهم من الممكن أن يمتلكوا كل شيء دون عناء.

- وهل فعلًا يستطيع ذلك؟

- لا عليك من هذا.

- ما اسم هذا الشاب الذي أخذوه؟

- اسمه نظير.

- واين أهله؟

- إنهم من الحاضرين حولك.

- وماذا سيحدث لهذا الشاب؟

لم ترد نبيلة ونظرت إليه في صمت، ثم حولت نظرها عنه. ارتعد فارس وقال بصوت عالٍ:

- ماذا سيحدث لهذا الشاب؟

رد عليه رجل من المجتمعين وقال:

- سينال ما يستحق. سينال عقاب المتكاسلين المُصرِّين على كسر النظام الذي نحيا عليه والذي يحفظ الواحة. سينال الحكم المحتوم.

شعر فارس بالخوف من كلام الرجل وقال له:

- وما هذا الحكم؟ أجبني من فضلك؟

وكان الرجلان يدفعان نظير إلى قاعة الواحة والحكيم ولجنة الحكماء في انتظاره.

ضحك الرجل في استهزاء ورحل عنه، فتوجه فارس إلى نبيلة وقال:

- أجيبيني أنت، يا نبيلة. ما هذا الحكم؟

ردت نبيلة محاولة تهدئته:

- لا تفكر كثيرًا.

قال فارس:

- لماذا لا يريد أحد أن يشرح لي ما هذا الحكم؟

كانت قمر في الأسفل عند المدرسة تراقب ما يحدث ورأت انفعال فارس وخوفه وانزعجت لذلك، ولكنها لم تبرح مكانها.

قال فارس بصوت عالٍ:

- هل سينفذون فيه الحكم حقًّا؟

رد أحد الحاضرين:

- إن لم يرجع عما هو فيه، فسيُحكم عليه. وفي الغالب سيُحكم عليه به.

رحلت نبيلة وتملك الخوف فارس، فظل منتظرًا أمام باب القاعة لوقت طويل. رحل الناس جميعًا ولم يبقَ أحد غيره. لا شيء يحدث، بل يسمع بعض الأصوات من داخل القاعة، ولكنه لا يميز أي شيء. ثم خرج أربعة رجال في ملبس مغاير للذي كانوا يلبسونه وكانوا يحملون نظير فوق أكتافهم وهو لا يحرك ساكنًا، فقال فارس بصوت ضعيف:

- لقد فارق الحياة!

أخذه الرجال ورحلوا وفارس لا يفكر إلا في هذا الأمر، ويُهمهم لنفسه ويقول يقتلونه؛ لأنه خالف النظام! يا لها من قسوة! لقد شعرت من البداية أن هذا المكان به شيء مخيف. لا بد أن أخرج من هنا بأسرع وقت.

فقال وهو يرد على نفسه وماذا إذا أمسكوا بك؟ سيقتلونك!

ذهب فارس مُطأطئ الرأس إلى كهفه والخوف يسكن بين ضلوعه ويتملك أفكاره.أخذ يضرب الغرفة ذهابًا وإيابًا، ولا يعرف ماذا يفعل. لم يأكل ولم يشرب، ونسي كل شيء.

١٧

في ليلة أضاءتها شمعة يتيمة في كهف فارس، وحام فيها الخوف حول رأسه، لم يغمض فارس عينه حتى طلعت الشمس. استيقظ على صوت خارج كهفه، فنهض سريعًا وترقب هذا الصوت، فإذا به شخص ما يقترب من بابه. انتظر صاحب الصوت دقيقة ورحل.

أخذ فارس يفكر:

لعلهم يطمئنون أني لم أرحل أو لعلهم يُضمرون لي شرًّا! استجمع قواه وخرج إلى الباب وفتحه ببطء، فإذا به يجد الطعام خارجه وموزع الطعام يرحل إلى الأعلى. أخذ فارس الطعام وقال في نفسه ما معنى الطعام وهم سيقتلونك؟ إن رحلت، فسيقتلونك، ولن تمكث في مثل هذا المكان المخيف. لقد قتلوا نظير، فهل ستكون مثله؟ ولكن كيف قتلوه؟ أوضعوا له سمًّا؟ أضربوه على رأسه فمات؟ أشنقوه؟ لو ضربوه على رأسه، لرأيت منه دمًا. أظنهم وضعوا له سمًّا على حين غفلة.

يا لهم من قساة! الرجل لا يريد أن يعمل. اتركوه يجُع ولا تقتلوه؛ فمن حقه أن يحيا. من حقه أن يتنفس.

أعتقد أن هذا الحكم المحتوم سم على حين غفلة. لا بد أن يكون كذلك، فلم أسمع استغاثة أو مقاومة.

ظل فارس يحدث نفسه هكذا طوال اليوم ولا يعلم ماذا يفعل.

اعتزل فارس في كهفه ليومين ونسي موعده مع قمر عند غروب كل يوم، وكانت هي تنتظرة طيلة اليومين الماضيين. وعند الموعد الثالث، راقبت قمر المكان من بعيد في حسرة، وحزنت لعدم مجيئه وذهبت إلى غرفتها وأمسكت قلمًا، وفكرت في أن تكتب شعرًا؛ ولكنها صمتت قليلًا ووضعت القلم جانبًا، ثم نهضت

في عزم. خرجت من كهفها واتجهت إلى كهف فارس ودفعت بابه، فانتفض فارس خوفًا، فقالت في صوت مرتفع:

- من أنت؟

- أهلًا وسهلًا، يا قمر.

- من أنت؟

- أنا فارس، يا قمر.

- أنا لا أعرفك.

صمت فارس وقال في نفسه «لا بد أن هذه الواحة ملعونة حقًّا! هل ستتنصل مني هي الأخرى؟» ثم قال لها:

- أنا فارس، يا قمر. لقد التقينا عند الشاطئ.

- لقد ألتقيت فعلًا بشاب عند الشاطئ قبل يومين، ولكنك لا تشبهه.

- ماذا تقولين؟

- أنت لا تشبهه أبدًا.

كانت قمر تتحدث بغضب وامتعاض، وتشير إلى فارس بإصبعها وتلوح بيدها.

- كيف هذا؟ أنا فارس، يا قمر.

- أنت كهل عجوز وهو شاب يافع. كانت عيناه تمتلآن بالحماسة ولا أرى في عينك إلا الضعف والخوف. ألا ترى أن ظهرك بدأ فعلًا بالانحناء؟

- كفاك، يا قمر! أنا فارس.

- لا أرى أمامي إلا كهلًا قارب على مفارقة الحياة والعظم بدأ بالظهور في وجهه. إذا كنت أنت إياه، فيا ويلي! لقد وقعت في حب كهل خائف لا يقدر على مجابهة الحياة.

- أتحبينني، يا قمر؟!

- بل أحب الشاب المتحمس الذي التقيته على الشاطئ.

- أنا هو.

- أنت لست إياه. لقد تملكك الخوف واستحكم منك وسيطر على عقلك وتفكيرك. لقد صرت كهلًا في ثلاثة أيام. لا أعجب إن كنت بدأت تسعل سعال كبار السن في الصباح والمساء، ولا إن كنت أخذت عكازًا تتعكز عليه لتقوم من مكانك أو لتمشي. خذها مني نصيحة؛ إن تملكك الخوف، فستكون ملكه وسيملك حياتك وأصبحت عبده؛ تخشى كل شيء ولو طارت بجوارك ورقة من على شجرة خشيت منها. لا أعجب أن أخبرتني أنك سمعت من ينادونك ليلًا، وأن هناك من يخيفك ويحدثك وأنت وحدك؛ فقد تحكم بك الخوف، فلا عجب بعدها. لن أسألك لِمَ لم تأتِ لموعدنا عند الشاطئ حتى نكمل قصة حبنا؛ فقد أنهيت أنت القصة قبل أن تبدأ. الخوف يُنهي كل شيء جميل ويحلّ مكانه الظلام وخيوط العنكبوت القبيحة الرفيعة. وكلما اهتزت هذه الخيوط، اهتز قلبك خوفًا.

صمتت قمر لدقيقة وقالت:

- قتلت إعجابي بك في مهده، يا للخسارة! ولكن إن خسرتني، فلا تجزع؛ ولكن اجزع حينما تخسر نفسك.

حاول فارس أن يتكلم لكن قمر قالت:

- لا لن أسمعك، ولكني أقول لك شيئًا تحتاج لتسمعه؛ ما دام الإنسان يتنفس، فهو حي؛ ولكن الحياة لا تكون حياة مع الخوف والقلق. كن حيًّا وانفض هذا الخوف والقلق من على كتفيك ومن فوق رأسك ومن بين ضلوعك. نم مطمئنًّا مرتاح البال؛ فأنت في أجمل بقاع الدنيا، ولكنك أضعت ثلاثة أيام في ظل خوف من مجهول لا تعلمه. ألا تدري أن الناس هنا يهتمون بأمرك؟ ألا تعلم أنهم يفرحون بلقائك؟ كل كلمة تقولها، وكل إعجاب تعبر عنه يصل إليهم ويدفعهم إلى السعادة. ألم تتخيل أن هؤلاء الناس كانوا ينتظرون مجيئك؟ أليس من الغباء -واعذرني في هذه

الجملة- أن تضيع من حياتك ثلاثة أيام متتابعة وأنت في الجنة لمجرد إحساسك بالخوف من شيء مجهول، شيء في علم الغيب، شيء من الممكن أن يحدث أو لا يحدث. لا يعلم الغيب إلا الله، فعش في حدود ما تعلمه أنت ولا تقلق من الغيب. لا تدع الخوف يأخذك عبدًا له.

رحلت قمر عن فارس وهو لا ينطق بكلمة.

١٨

في اليوم التالي، في الساعة التاسعة صباحًا، كان الجو هادئًا كالمعتاد؛ الشمس ساطعة ونسيم عليل يهز أوراق الأشجار والبحيرة في هدوء تام والمزراعون وجامعو الثمار كلٌّ في عمله، وموزعو الطعام يؤدون عملهم ككل يوم؛ وفجأة سمع جميع من في الواحة صوت فارس يصيح ويقفز في البحيرة، فصنع سلسلة كبيرة من الأمواج. ظل يقفز في الماء ويدفع الماء بكلتا يديه، وكانت الطيور قد تطايرت من حوله فزعًا واندفعت بعض الأسماك بعيدًا عنه، وكان يكرر ذلك؛ يخرج خارج الماء ويصيح عاليًا، ثم يقفز إلى الماء ويدفع الماء بيديه ثانيةً، ثم يغطس في الماء لفترة ويخرج من تحت الماء وهو ينفض كل قطرة من الماء على جسده في حركات سريعة كأنه يريد أن يُخرج شيئًا ما من داخل جسده.

ضحك الناس كثيرًا لفعل فارس واندهشوا من تغيره إلى الحيوية والنشاط بدلًا من التقوقع على نفسه في الكهف. راقبوه لفترة وهم فرحون لعودته وكان من حين لآخر يرفع يده ليُحيّيهم كنجم مشهور، وكان الناس يُحيّونه بحرارة والسعادة تغمر وجوههم.

خرج فارس من الماء وذهب ليغتسل تحت ماء الشلال الصافي العذب. وضع يديه في الماء، فإذا به نقي وصافٍ كالزجاج الشفاف. استمتع فارس كثيرًا، وبعدما اغتسل، قذف له أحد موزعي الطعام موزًا وتفاحًا، وقال له هذا من طعامك.

جلس فارس في مكان مشمس ينعم بالواحة الساحرة وجوها الهانئ ويأكل بعض الفواكه. إنه في الجنة ينعم بها، يرى الدنيا بشكل مختلف عن أمس، لا يخاف شيئًا. الآن يحيا ليستمتع بوقته في الواحة.

مكث بعض الوقت ثم ذهب إلى كهفه واستبدل ملابسه، وذهب إلى بيت

الحكيم وطلب مقابلته، فرحب به الحكيم.

- أهلًا، يا فارس. تفضل بالجلوس.

- شكرًا لك، أيها الحكيم.

جلسا سويًّا على كراسي خشبية عتيقة لا يظهر لونها الأصلي إن كان أسود أم بُنِّيًّا وأمامهما بعض الفواكه والماء. قال فارس:

- أولًا أحب أن أشكرك على مقابلتي.

- لا تشكرني، يا بني؛ فأنا أحب أن أراك.

- شكرًا لك، يا حكيم. وثانيًا أحب أن أشكرك على كرمك أنت وأهل الواحة.

- هذا لا يستدعي الشكر، يا بني.

- هناك أمر أحببت أن أطلبه منك.

- تفضل، يا بني.

- أعلم أنه اليوم التاسع وآخر يوم لي هنا غدًا كضيف، وأردت أن أطلب طلبًا.

- ماذا تريد؟

- أريد أن أتحدث إلى أهل الواحة جميعًا.

- أنت محظوظ، يا فارس.

- ولِمَ ذلك؟

- لأن الغد هو يوم الابتكار.

- يوم الابتكار! وما هو؟

- إنه يوم يتكرر كل ثلاثة أشهر، يتجمع فيه أهل الواحة ليعرض كل من ابتكر شيئًا جديدًا ينفع الواحة أما الجميع.

- ما زلت أندهش منكم ومن حياتكم، أيها الحكيم. أنتم فعلًا محظوظون لتعيشوا مثل هذه الحياة السعيدة.

- الحياة السعيدة يصنعها الناس، يا بني.

- لن أضيع وقتك، أيها الحكيم. هل توافق على أن أخاطب الناس.

- نعم، أوافق. سأمنحك الوقت لتحدث الناس بعد انتهاء الاحتفال.

- شكرًا لك.

- حسبتك ستسأل عن نظير وعن الحكم المحتوم.

- لا. هذا الشيء لم يعد يشغل تفكيري.

- أحسنت، يا بني.

- والآن أتركك، أيها الحكيم. وموعدنا غدًا في يوم الابتكار.

١٩

في الصباح، استيقظ فارس وعلى وجهه ابتسامة عريضة وكله حيوية ونشاط. لقد ذهب عنه الخوف الذي كان يُثقل كاهله وقلبه، وقد نام نومًا هنيئًا طويلًا. حاول أن يرى قدر ارتفاع الشمس حتى يعرف الوقت، فنظر من فتحة بالباب، فوجد أن الشمس قد ارتفعت كثيرًا. ارتدى ملابسه وتناول طعام الإفطار، ثم خرج إلى الواحة فوجدها مُزينة بزينة جميلة كأن بالواحة عرسًا كبيرًا أو حفل تنصيب حكيم جديد؛ خيام مزركشة وموائد بطول الشاطئ وترتيبات هائلة. ووجد الناس يجهزون لبداية الحفل، فذهب ليأخذ مكانه، فأشارت له بعض الفتيات الصغيرات بأن يجلس خلف الحكيم.

كان الجمع كبيرًا جدًّا وأغلب الناس جالسون وبعضهم يمسك شيئًا بيده أو يضع أمامه أشياء غريبة. وكان فارس متطلعًا لمعرفة ما هذه الأشياء، ثم قطع فكرَه صوتٌ قويٌّ يقول:

- أنصتوا وخذوا أماكنكم من فضلكم.

ثم وقف الحكيم وقال:

- مرحبًا بكم، يا أهل الواحة ومالكيها. كالمعتاد نتجمع كل ثلاثة أشهر لنعمل سويًّا على أمرين مهمين: الأول أن نُشبع رغبة الإبداع والابتكار وننميها فينا، والثاني أن نعمل بذلك على تطوير واحتنا وحياتنا. واعلموا أن تطور الواحة لا يكون إلا بكم وبعملكم؛ فلا تُحقِّروا من فكرة بداخلكم أبدًا؛ فمهما كانت الفكرة صغيرة أو تكُن ضربًا من الخيال، فمن الممكن أن تكون أفضل الابتكارات. أشكركم على حضوركم وجهودكم، وليبدأ عرض الأفكار.

حينها قالت فتاة جميلة:

- والآن مع بدء عرض الأفكار حسب ترتيب الأسماء المسجلة. نرجو ألا يطول وقت عرضكم. والآن مع الاسم الأول، عهد مصعب.

وقفت فتاة صغيرة نحيلة عيناها بارقتان، واثقة الخطى، عمرها لا يتعدى عشر سنوات. وقفت أمام الجمع وقفة ثابتة ولم يكن بيدها شيء كبير؛ إنه أنبوب من الزجاج: هل هي من ابتكرته؟ أنبوب جميل صغير حقًّا (تساءل فارس). قالت الفتاة:

- أيها السادة، عندما حضرت يوم الابتكار الماضي، رأيت أحد الابتكارات التي بهرتني وألهمتني. كان الابتكار لعفت عامر، وكانت فكرة عفت أنها صنعت أنابيب صغيرة كالتي في يدي، فأعجبتني الفكرة كثيرًا وبحثت في استخدام مبتكر لها. أنا أحب الورود كثيرًا وأحب رائحتها، فقلت ماذا لو كانت رائحة الورود معي دائمًا؟ ومن هنا جاءتني الفكرة؛ عليّ استخراج ماء الندى وماء المطر الذي يُنقع داخل الورود ليوم مثلًا، وبواسطة هذا الأنبوب يصعد الماء محملًا برائحة جميلة. وبذلك تستطيعون أن تأخذوا رائحة الزهور معكم في كل مكان.

ثم رفعت الفتاة الزجاجة عاليًا.

- لقد استخدمت الأنابيب الزجاجية الدقيقة في رفع رحيق الزهور المختلط بالماء، فجمعت هذه الكمية الصغيرة دون أن أتلف أي زهرة. لقد جمعت هذه الكمية في يومين.

كانت كمية صغيرة تكفي فردًا ليومين أوثلاثة.

تقدمت الفتاة إلى الحكيم بزجاجتها وسكبت قليلًا من السائل الذي به على يده وعلى أيدي أعضاء لجنة الحكماء، فاندهشوا من طيب الرائحة؛ إنه فعلًا عطر جميل. وحينها قال أحد الحكماء، والغالب أنه كان تاجرًا قبل أن يكون حكيمًا:

- لا بد أن تُختبر الفكرة على مجال أوسع حتى تنتج عطرًا أوفر نستخدمه، وسيكون بضاعة ثمينة جدًّا تدرُّ الربح على الواحة.

ثم قال الحكيم:

- شكرًا لك، يا بنيتي. فكرتك جميلة مثلك، وتستحق التنفيذ.

شكرت الفتاة الحكيم. وفي طريقها إلى مكانها، كانت تتلقى التحية من كل من تمر به وكانت سعيدة جدًّا.

وحينها قامت الفتاة التي تنادي المبتكرين، ونادت الاسم التالي، حسن رفعت.

ظهر فتى في سنّ خمسة عشرة عامًا من بين الحضور، طويل القامة شعره أسود ونحيف الوجه، وعلى وجهه سعادة الحماس. حضر إلى مقدمة الجمع وكان في يده فرع من شجر الزيتون وشيء يشبه اليد، ولكنه مصنوع من الخشب وبه خمسة أصابع تمامًا كاليد. قال الفتي في ثقة وهو يخاطب الحكماء من حوله:

- هذا الابتكار لتسهيل جمع الثمار الصغيرة، مثل الزيتون والليمون وكل الثمار الصغيرة. والآن سأريكم الطريقة.

أشار الفتى لصديق له، فجاء ثم أمسك بفرع الزيتون لأعلى في مثل وضعه على الشجرة. وجاء الفتى بقطعة من القماش وفرشها بجانب أرجل صديقه وأمسك باليد الخشبية ومررها على فرع الزيتون، فإذا بالزيتون يسقط على القماش بأعداد كبيرة، والصغير جدًّا منه غير الناضج ظل على الشجرة. وبعدها أمسك الفتى بالقماش وبه كمية كبيرة من الزيتون ورفعها إلى أعلى ليراها الناس، فوقف كل جامعي الثمار والمزارعين يحيّونه على صنيعه؛ فهذه الفكرة ستُريحهم كثيرًا.

ذهب الفتى ووضع القماش على الطوالة أمام الحكيم، فابتسم الحكيم وحيّا الفتى وقال: اختراع عملي جدًّا، يا بني!

ثم تكلم مع من حوله وقال: لا بد أن نصنع منه واحدًا لكل جامع ثمار في الواحة.

ثم التفت إلى الفتى وقال: أحسنت صنعًا، يا بني.

وقف أغلب جامعي الثمار يحيّون الفتى على صنيعه، وظلوا يحيّونه لفترة طويلة.

وقفت الفتاة التي تنادي المبتكرين وقالت:

الاسم التالي عصام قاسم.

وقف رجل في الأربعين من عمره، مهندم وحسن المظهر وقال:

- لطالما حلمت ألا تُكسر أشيائي؛ فعندما كنت صغيرًا، كانت لي لعبة أحبها كثيرًا. وعندما كُسرت، حزنت حزنًا شديدًا. ومنذ ذلك الحين أحلم ألا تُكسر الأشياء.

ثم أخرج الرجل من جيبه قنينة وقال:

- هذا السائل يمنع الأشياء من أن تُكسر. لقد طورته أكثر من مرة لكي يعمل بصورة حسنة.

أخذ الرجل قطعتين رفيعتين من الخشب وأمسك بإحداهما عاليًا حتى يراه كل الناس، ثم كسرها أمام الناس، ثم أخرج قطعة من القماش وبدأ يدهن قطعة الخشب الأخرى بالسائل الذي في يده، وبدأ يحركها في الهواء حتى بدا كساحر، ولكنه كان يحركها حتى يجف السائل. وبعد دقائق ذهب إلى الحكيم، وقال:

- جرب، أيها الحكيم، ما إن كانت ستُكسر.

حاول الحكيم أن يكسر القطعة الخشبية، ولكنها لم تُكسر. وحاول أحد الحكماء الآخرين، ولكنها لم تُكسر، فأعطاها لرجل قوي من سكان الواحة كان يجلس في الصف الأمامي. حاول الرجل كثيرًا أن يكسرها حتى تعرق وضحك الناس ولم يستطع أن يكسرها.

قال الحكيم: أحسنت صنعًا، يا عصام! أحسنت صنعا، يا أخي! كم من الوقت عملت على تطوير هذا السائل؟

رد الرجل وقال: سبعة أعوام. لقد جربت كثيرًا وفشلت، ولكني نجحت هذا العام.

رد الحكيم: أحسنت صنعًا، يا رجل. مجهود كبير جدًّا. سيكون هذا الابتكار مهمًّا جدًّا لواحتنا.

حيّا جميع الناس عصام على ابتكاره الرائع، وكان منشرحًا لهذا الاحتفاء والتحيات من الناس.

جاء الدور على فتاة أخرى عرضت لوحات رسم جميلة للواحة. وجاء الدور على فتى رسم رسمة غريبة لفتاة ذات عينين واسعتين وكان كل الحاضرين يقولون إنها تنظر لهم شخصيًّا؛ فهي تبدو لك أنها تنظر إليك مهما اختلف مكانك.

توالت الأفكار والابتكارات في هذا اليوم الحافل وفارس في غاية الاندهاش مما يرى من أشياء عجيبة أشياء غريبة، ولكنه بعد فترة أيقن أن هذا الجو من العدل والسعادة المتوفر في الواحة لا بد أن يصحبه أفكار جميلة كهذه.

حينما أوشك اليوم على الانتهاء، نادى الحكيم وقال:

- أيها الناس، أشكر لكم جميعًا حضوركم وعرض أفكاركم. لقد أثريتم واحتنا بكل جميل، وشكرًا لكل من ابتكر، وشكرًا لكل من شجع الابتكار؛ فلا حياة من دونكم في الواحة. بوجودكم يكون هذا المكان جميلًا، فهنيئًا لنا جميعًا على مثل هذا اليوم. والآن يود ضيفنا فارس أن يتحدث إلينا؛ فأنصتوا إليه من فضلكم.

أشار الحكيم إلى فارس ليقف ويخاطب الناس، فتهيأ فارس وقال:

- يا أهل الواحة الكرام، لقد أمضيت أيامًا جميلة جدًّا هنا في هذه الواحة الجميلة؛ محاطًا دائمًا بضيافتكم الكريمة وابتساماتكم السعيدة؛ فشكرًا جزيلًا لكم على كل ذلك. والآن أحب أن أقول شيئًا. لقد أحببت هذه الواحة كثيرًا وأحببت حياتكم وطريقة تفكيركم، وأريد أن أكون واحدًا منكم. أريد أن أحيا هنا ولا أريد أن أغادر الواحة، ولكن هذا يتوقف على شيء واحد؛ فبدافع الشجاعة، لا دافع التبجح، أريد أن أطلب يد قمر للزواج؛ فإن وافقت، تزوجتها وعشت بينكم. وإن رفضت، فسأرحل ولا يهمني أن يُحكم عليَّ بالحكم المحتوم.

صفق الناس لهذا الكلام الشجاع ونظروا جميعًا إلى قمر، فوقفت وقالت بعد صمت قليل:

- أوافق على ما طلبت، ولكن بشرط أن تتخطى متاهة الخوف.

اندهش الناس من طلبها وظهرت عليهم ملامح القلق وتطلعوا جميعًا لردة فعل فارس.

همَّ فارس مندفعًا أن يقول شيئًا، فقال الحكيم:

- انتظر، يا بني! إنه ليس بالأمر السهل أن تدخل متاهة الخوف. إنه أختبار صعب جدًّا.

قال فارس بثقة: وأنا قبلت بشرطك، على أن تتم خطبتنا الآن.

هلل الناس في الواحة فرحًا وحيوا فارس على شجاعته، وهنأت الفتيات قمر، ثم ذهب فارس إلى قمر وقال لها:

- أنا أسعد رجل في العالم. أنا لا أخاف إلا أن أفقدك فقط؛ فمهما كان التحدي صعبًا، فسأخوضه من أجلك، يا قمر.

قال الحكيم:

- الغد سيكون يومك العاشر هنا، فلا بد أن تدخل المتاهة قبل نهاية النهار من يوم غد.

وافق فارس على ذلك. وانصرف الناس وجلس فارس مع قمر على شاطئ البحيرة، وكان أكثر الجلسة صمتًا وابتسامات.

٢٠

في اليوم التالي، استيقظ فارس على طرق على باب كهفه، وأخبره أحدهم أن الحكيم يريده في أمر هام.

ذهب فارس إلى الحكيم وكانت نبيلة تنتظره أمام كهفهم، فنظرت له نظرة غريبة وقالت:

- أستفعل ذلك حقًّا؟

- نعم.

- إذن أنت عازم ولا رجعة في ذلك.

- نعم.

- كل ذلك من أجل قمر. تخاطر بنفسك من أجل الحياة معها.

- نعم، سأفعل ذلك من أجلها.

- أيستحق الأمر ذلك؟

- نعم، يستحق؛ ولكن لِمَ كل هذه الأسئلة.

- ظننتك ستهرب في يوم من الأيام.

- لم أتوقع منكِ ذلك، يا نبيلة! لِمَ كل هذا؟

- اعذرني، لا أرى أمامي هذا الفارس المغوار الذي يضحي بنفسه من أجل حبيبته. آمل ألا تخدعنا جميعًا وتهرب؛ فأهل الواحة قد وثقوا فيك وأحبوك.

- لِمَ الهروب؟ إنني صادق فيما أقول.

- الواحة لا تتحمل الكذب والمراوغة.

- عندي موعد مع الحكيم، هل هو موجود؟

- نعم، موجود وينتظرك؛ ولكنه في القاعة قد سبقك إلى هناك.

- شكرًا.

ذهب فارس إلى قاعة الواحة، فوجد الحكيم ولجنة الحكماء في انتظاره، فقال أحدهم:

- أهلًا بالبطل! أنت الآن بطل الواحة وستُروى قصتك لأجيال.

- شكرًا، يا سيدي.

- أتعلم ما أنت مقبل عليه، يا فارس؟

- نعم إنه تحدٍّ.

- إنه أختبار شديد، يا بني.

- سأنجح فيه إن شاء الله.

- لا بد أن تعرف أن هذا الاختبار به الكثير من المراحل. إنه ليس اختبارًا واحدًا فقط، بل عدة اختبارات ابتداءً من باب الدخول حتى باب الخروج؛ وعليك إكماله لكي تنجح.. قال ذلك أحد لجنة الحكماء

قاطع الحكيم وقال:

- اعلم، يا بني، أنك إن غيرت رأيك ولم تدخل المتاهة، فسيُحكم عليك بالحكم المحتوم. وإن دخلت، فلا بد أن تنجح؛ لأنك إن فشلت، فسيُحكم عليك بالحكم المحتوم. أما إن نجحت، فستكون واحدًا من أهل الواحة؛ لا فرق بينك وبين أي أحد منها، وستتزوج قمر كما طلبت. واعلم، يا بني، أنك لن تحصل على مساعدة في هذا الاختبار ولو مكثت عشر سنوات. أنت من تساعد نفسك، إلا أن تعلن أنك فشلت وتريد الخروج، ووقتها سيكون أمامك أيضًا الحكم المحتوم.

قال فارس: فهمت ذلك.

قال أحد الحكماء: إنني معجب بشجاعتك، يا فارس!

وعقّب آخر وقال: كلنا معجبون بشجاعتك، ونعلم أنك لن تخذلنا وستنجح في هذا الاختبار في أسرع وقت.

قال الحكيم: كلنا نتمنى لك التوفيق، يا بني. هل أنت مستعد للدخول، يا فارس؟

رد فارس بنفس هادئة قائلًا: نعم، مستعدّ.

- إذن سنُعلم الواحة أنك ستدخل بعد الظهيرة، وسننتظرك هناك. أمامك ثلاث ساعات.

رحل فارس وذهب قاصدًا قمر في المدرسة، ولما رأته، ابتسمت وقالت:

- كنت أعلم أنك ستأتي.

- وكيف لا آتي؟ وهل لي سواك؟

- لا تبالغ.

- أنا لا أبالغ. أنا هنا من أجلك أنت، وسأذهب بعد ثلاث ساعات لأدخل هذا الاختبار من أجلك أنت، وسأفعل أي شيء من أجلك أنت.

- ما كل هذا الاندفاع؟

- أنا مفتون بك، يا قمر. أشعر أني أحبك منذ زمن بعيد. أشعر أني أعرفك منذ عمر مضي.

أخرجت قمر بعض الهواء من صدرها مع تنهيده خفيفة وقالت: أحبك كثيرًا.

- أشعر بحب وسعادة وأنا في جوارِكِ؛ فأنت تسحرينني. عيناكِ تأخذانني بعيدًا أبعد من أي سفر قد قمت به.

- لا تُكثر الغزل.. قالتها وهي تبتسم

- أحبك، يا قمر.

- أشعر بفرح شديد لأنك ستفعل هذا من أجلي، وأشعر بالخوف عليك من هذا الاختبار.

- لا تخافي. سأرجع في أقرب وقت.

- لا تكسر قلبي. سأعترف لك بشيء، لقد كتبت لك شعرًا أمس.

- قوليه لي.

- أخجل أن أقوله.

- قولي بعضه.

- حسنًا، اسمع ولكن لا تنظر في عيني؛ لأني لا أستطيع التركيز وأنت تنظر في عيني.

- حسنًا.

- اسمع.

أحبك ولا أحب غيرك

يا من فاجأتني بطلبك

اكتشفت أني لم أتوقف عن حبك

يا من جعلتني أنسى الأسى الذي قبلك

اعلم أني أحبك ولا أحب غيرك

نظر فارس إليها وكان في غاية السعادة وقال:

- ما هذا الشعر الجميل؟ إنني أحبك جدًّا. أكملي، يا قمر.

- كفى! لقد أحمر وجهي.

- سأنهي هذا الاختبار لأكون بقربك دائمًا وأسمع شعرك الجميل.

- إنني أحبك؛ فاحرص على أن تعود إليَّ سالمًا قريبًا؛ وإلا فطرت قلبي ثانيةً.

- لا تخافي! سأعود قريبًا جدًّا ولن أفطر قلبك أبدًا.

- لا تخشَ شيئًا داخل هذا الاختبار. فقط كن حذرًا، ومهما يكن، فتقدم إلى الأمام. لا بد أن تتذكر هذا، واعلم أن القليل من الخوف لا عيب فيه؛ ولكن لا تدع الخوف يتملكك.

- لا مكان في قلبي للخوف؛ فحبك قد ملأ قلبي.

أمسك فارس يدها وقبّلها، فاقشعرّ جسدها وقالت:

- سأكون في انتظارك عند باب الخروج من المتاهة.

- سيكون هذا أكبر دافع لي.

- حقًّا.

- نعم، ولكن كم يستغرق هذا الاختبار؟

- هذا يعتمد عليك ولا أحد غيرك. ربما يستغرق يومين أو عشرة أعوام.

- هل خاضه أحد قبلي؟

- نعم.

- هل تعرفين أحدًا.

- جميع الحكماء قد خاضوه وجميع التجار أيضًا.

- ولِمَ التجار بالتحديد؟!

- ليحافظوا على سر الواحة في أثناء السفر في تجارتهم. وستعرف الكثير عندما تخرج. والآن عليك أن تذهب لتجهز نفسك.

- أنا أجهز نفسي الآن؛ فوجودي معك هو أكبر دافع لي.

أمضى فارس مع قمر الوقت حتى الظهيرة. وقد أحضر له موزع الطعام طعامه على الشاطئ، فتناولا بعضه سويًّا وهم يهيمان حبًّا وغرامًا حتى حل موعد الاختبار.

٢١

في الوقت المعلوم، تجمع أهل الواحة جميعًا ليشاهدوا دخول فارس إلى متاهة الخوف. وكان من بين الحضور قمر ولجنة الحكماء والحكيم ونبيلة، وكل أهل الواحة بلا استثناء؛ فهذا الحدث لا يتكرر كل يوم. وقف الحكيم أمام طاولة وعليها قارورة بها سائل أحمر داكن حسبه فارس خمرًا، وكان أمامهم جبل كبير غُطي أسفله بقطعة كبيرة من القماش. اعتقد فارس أن باب المتاهة خلف قطعة القماش الكبيرة هذه ذات اللون الأسود، ولكن لماذا استخدموا اللون الأسود في تغطية باب المتاهة؟ ألا يتفاءلون ويضعون لونًا آخر غير الأسود؟ إنه يبعث على التشاؤم والخوف من المجهول القادم وراءه.

وقف الحكيم وقال:

- مستعد، يا بني؟

- نعم، مستعد.

رفع الحكيم القنينة التي تحتوي على السائل الأحمر الداكن وقال:

- يا فارس هذا هو الحكم المحتوم.

اندهش فارس واعتقد أنه كما توقع سابقًا أن يكون الحكم عبارة عن الموت بالسم. أومأ فارس برأسه ولم يلفظ بكلمة، فقال الحكيم:

- ستدخل الآن، يا بني.

- نعم.. قال فارس وهو ينظر إلى قمر بابتسام

أشار الحكيم لبعض الرجال، فإذا بهم يُزيلون قطعة القماش؛ فإذا بنار ملتهبة تغطي باب المتاهة! اندهش فارس من هذا المنظر وظهرت علامات الخوف على وجهه، فقال الحكيم:

- ما بك، يا بني؟ هل غيرت رأيك؟

- لا، لا لم أغير رأيي؛ ولكن هل يُعقل أن أقفز في النار؟

- هذه بداية الاختبار، فهل ستدخل أم لا؟

- الأمر صعب جدًّا.

- لا عيب في أن تغير رأيك.

نظر فارس إلى قمر فوجدها تشير له بالدخول وتذكّره بإشارة أن تقدم دائمًا.

- لا، لم أغير رأيي، أيها الحكيم؛ ولكن هل كل الاختبار سيكون هكذا؟

- لا بد أن تكتشف بنفسك.

- إنها التهلكة بعينها، ولكن أيًّا ما كان، فسأفعل ذلك من أجلك، يا قمر؛ فحبيبك لا بد أن يكون شجاعًا؛ وأنا كذلك.

هتف الناس باسمه وحيَّوْه، فنظر إلى قمر ووجّه لها قبلة بيد مرتعشة قليلًا، ثم رجع إلى الخلف كثيرًا، فظن بعض الناس أنه يحاول أن يهرب؛ فقد حاول غيره ذلك من قبلُ. وبعدما رجع، توقف دقيقتين حتى سمع صوت العصافير من الأشجار من شدة الصمت، ثم اندفع إلى الأمام مسرعًا وقفز إلى الباب مسرعًا، فشعر بحرارة النار على جلده، وشعر أن شعره قد بدأ يحترق. وبعدها سقط داخل المتاهة وتدحرج قليلًا، فنظر حوله بحذر، فوجد كل شيء عادي؛ الأشجار في كل مكان كما في الخارج ويوجد ممر بينها، ولكن الأشجار متقاربة جدًّا لا تسمح بالدخول بينها. فقط الممر إلى الأمام هو ما يستطيع أن يمشي فيه، وتوجد بعض الطيور كما بالخارج، غير أن الرائحة هنا كريهة جدًّا لا يعلم مصدرها.

وقف ونظر حوله ولم يصدق أنه قفز من الباب الذي يبعد عنه أمتارًا وكله نيران. شعر بالشجاعة والفخر، وأحس أنه سيُنهي هذا الاختبار سريعًا، ولكنه سمع حركة بين الأشجار، فانبطح أرضًا وظل يرقب الصوت بحذر. عاد الصوت من جديد،

ولكنه كان أشد وأكثر اقترابًا: هل يكون أسدًا أم دُبًّا؟ خفق قلبه بسرعة: هل سيكون فريسة لحيوان مفترس؟ وكيف يحاول أن يقتله وهو لا يملك أي شيء يدافع به عن نفسه؟ هذا ليس عدلًا! كان من المفترض أن يعطوه ولو خنجرًا صغيرًا.

ظل الصوت يقترب منه وهو لا يعرف ماذا يصنع، غير أن يلزم مكانه دون أن يحرك ساكنًا. وفجأة قفز شيء شبيه بقرد كبير متوحش أمامه. حاول فارس أن يتخفى، ولكنه لم يستطيع؛ فإذا به يسمع صوتًا يقول:

- هل دخل مغفل جديد إلى المتاهة؟

لم يصدق فارس أن من يحدثه كان بشرًا؛ فهو مغطى بالشعر والريش وورق الشجر، ولا يبدو إنسانًا إلا من كلامه. وتنبعث منه رائحة سيئة جدًّا، فعلم أنه مصدر هذه الرائحة التي تعم المكان.

اتجه الرجل الغريب إلى فارس وقال:

- هل أنت المغفل الجديد؟

- لا، أنا لست مغفلًا.

- إذن لِمَ أنت هنا؟

- جئت لأجتاز الاختبار.

- إذن أنت المغفل الجديد.

- لِمَ هذا؟

- هل من عاقل يقفز في النار ولا يعلم المجهول الذي خلف النار؟ هل من عاقل يُلقي بنفسه إلى التهلكة؟

- ولكنك قفزت فيها قبلي.

- نعم أعترف بذلك؛ فأنا كنت مغفلًا مثلك، ولكني لم أعد كذلك. لقد غيرت ذلك.

- وكيف غيرت هذا وأنت على حالك هذه؟

- حالي هذه! لِمَ تهزأ بي؟ من أنت لتحكم عليَّ؟ لا أحد يحكم عليَّ. أنا هنا آكل وأشرب وأبتعد عن كل تلك القواعد والقوانين التي يحيون بها في الخارج.

- هل يختار البقاء هنا أحد؟

- أنا اخترته؛ ففيه كل ما أريد.

- هل أسألك سؤالًا بصدق؟

- تفضل، ولكن لا تهزأ.

- لا، لن أهزأ بك. ما الذي دفعك للدخول إلى هنا؟

- لقد قلت لك إني كنت مغفلًا.

- ولكن ما السبب الحقيقي لدخولك؟

- السبب هو أنني كنت أعمل مزارعًا، وكنت أرى التجار يخرجون خارج الواحة ويسافرون ويرون أماكن جديدة.

صمت الرجل قليلًا وارتسمت على وجهه ابتسامة وهو يقول:

- يسافرون بعيدًا ويرون البحر الكبير والدنيا الواسعة، ويقابلون أناسًا مختلفين عنا. ورأيت تلك السعادة في وجوههم وهم يحدثوننا عن رحلاتهم حتى المخاطر التي كانوا يواجهونها؛ فقررت أن أكون تاجرًا، فقيل لي لا بد أن أجتاز هذا الاختبار.

- هذا سبب مقنع لدخول المتاهة.

- هذا سبب يقتل.

- لقد تخليت عن أحلامك ومكثت في هذا المكان البائس، حتى رائحته لا تطاق. منذ متى أنت هنا؟

- أنا هنا منذ أربعة أعوام.

- كيف تحيا هكذا؟

- إنها الحياة التي أريد.

- هذه الحياة لا تليق ببشر.

- كيف تأكل؟ وكيف تنام؟ وكيف تعيش؟ بلا بشر حولك، وبلا أهل، وبلا زوجة وأولاد. أنت ميت هنا! هذه ليست حياة.

- أنا لست ميتًا، بل أنا عاقل لا يريد أن يموت.

- هل رأيت أحدًا يمر من هنا؟

- نعم، رأيت مغفلين قبلك.

- ألم تفكر في أن تكون مثل من مروا بك؟

- ألا تعلم أن ما بعد ذلك أصعبُ من هذه النار؟

- أنا لا أعلم شيئًا، ولكن تعالَ معي لنرَ سويًّا.

- لا، لن أبرح مكاني.

- جرب فقط. أنت تحب السفر، وتحب أن تكون تاجرًا. أنا جربت السفر وأعرف ما تقول.

- حقًّا جربت السفر؟

- نعم، فأنا تاجر في الأساس.

- حقًّا! هل تسافر بعيدًا؟ هل رأيت البحر الأزرق الكبير؟

- نعم رأيته.

- ما كان لونه.

- كان لونه أزرق متغيرًا. أحيانًا أزرق غامق، وفي أماكن أخرى يكون أزرق بلون السماء.

- ماذا رأيت أيضًا؟ قُصَّ عليَّ.

- سأقص عليك إن أتيت معي.

- لا، قُصَّ عليَّ هنا.

- يجب أن أرحل.

- سآتي معك، ولكن سأرجع عند أول خطر.

- كما يحلو لك. هيا بنا!

مشيا إلى الأمام سويًّا، فسأل الرجل فارس قائلًا:

- إلى أين سافرت؟

- لقد ذهبت إلى الحبشة والنوبة وداخل أفريقيا، وإلى الحجاز والشام.

- بلاد كثيرة ومختلفة.

- نعم.

- ماذا جذبك في النوبة؟

- الناس هناك طيبون جدًّا وأشداء وأقوياء.

- ماذا رأيت في الحبشة؟

- رأيت الجبال تنبع منها أنهار طويلة كثيرة وبحيرات عذبة.

- هل الأرض هناك بُنِّيَّة كهنا؟

- لا، الأرض هناك سمراء.

ظل فارس يقص على الرجل أشياء رآها وهو يسمع ويستفسر كطفل صغير، وكان مستمتعًا جدًّا بهذه الحكايات؛ فهذه البلاد حلم أن يراها ويختبرها بعينه. ولكن أين هو الآن؟ لقد أضاع حلمه وحياته؛ لأنه خائف.

قاطع الرجل فارس كأنما قرصه عقرب وقال:

- ألم أقل لك إنني سوف أرجع؟

- لماذا سترجع؟

- انظر أمامك.

نظر فارس، فوجد أشواكًا طويلة رفيعة حادة جدًّا ومتقاربة جدًّا تقع بين حجرين كبيرين، وعلى جوانب الحجارة سيوف لامعة؛ ولا طريق أمامهم إلا بين هذين الحجرين. لمس فارس السيف، فجرح يده ونزف بعض الدم، فقال فارس:

- إنها حادة جدًّا.

- ألم أقل لك نحن مغفلان؟

- اهدأ. سنجد طريقة للعبور.

- كيف هذا؟! انظر إلى هذه الأشواك، وإلى هذه السيوف. كيف ستمر؟ لا أعرف كيف وافقت على القدوم معك إلى هنا.

- لا بد أن لنا من مخرجًا.

- ما من مخرج، يا عزيزي.

- إذن كيف مر من نجح قبلنا؟

- أظنهم يملكون مواهب ليست عندنا.

- لا أظن ذلك.

- بل أعتقد أنهم فعلًا يمتلكون مواهب خارقة، أو أنهم يستطيعون الطيران في الهواء، أو يعرفون قدرًا من السحر.

- عما تتكلم، يا رجل.

- أقول لك هناك أناس يمتلكون قوى خفية يستخدمونها وقت الحاجة، وأظن أن من نجحوا فعلوا ذلك.

- لا تصدق هذا.

- إذن كيف مروا من هنا؟

- هذا ما سنكتشفه.

ظل فارس يفكر كيف يجتاز هذه الأشواك الخطيرة. وبعد قليل، خطرت له فكرة فقال:

- إن الأشواك متقاربة جدًّا؛ فإن وضعنا خشبًا، فستحمله الأشواك ونمر فوق الخشب.

همّ فارس بحمل فرع شجرة كبير، وألقى به على الأشواك؛ فإذا بالأشواك تتكسر وتتناثر مثل حبات التراب.

- أرأيت، يا رجل؟ لقد تهشمت الأشواك. الأمر سهل، يا صديقي.

- لا ليس بالسهولة التي تتحدث عنها.

- لو كنا وضعنا أقدامنا، لتكسرت الأشواك تحتها.

- لا تكن ساذجًا هكذا، أيها التاجر.

- إذن هيا بنا نتقدم.

- ما زال الخوف يساورني.

- لا تخف ولا تقلق.

- أعتقد أني لم أُخلق لأرى العالم، بل خُلقت لأعيش بين الأشجار.

- أنت من يحكم على نفسك.

- بل أنت من يحكم على نفسك بالموت وأنت تلقي بنفسك في اختبار تلو الآخر.

رحل الرجل المذعور راجعًا إلى عشة بين الأشجار، وتخطى فارس الأشواك وتقدم إلى الأمام؛ ولكنه رأى بعض العظام، وكلما تقدم أكثر، كثرت العظام! إنه منظر يبعث على الخوف، ولكنه قرر أن يتقدم بسرعة؛ لأنه بدأ يشعر بالخوف. بدأ الضوء يختفي بين الأشجار؛ لأن الأشجار حوله صارت أشد تقاربًا. وكلما تقدم

إلى الأمام، تقاربت الأشجار أكثر حتى أغلقت الممر ولم يبقَ بها إلا فراغ يكفي شخصًا واحدًا، وقد أصبحت متشابكة من الأعلى أيضًا وتلاحمت أكثر فأكثر، حتى إنه اضطر للانحناء حتى يتقدم إلى الأمام. وقاده هذا الممر الضيق إلى باب كهف مظلم بعض الشيء، فدخل بحذر وتقدم إلى الأمام، ولكنه فوجئ عندما أُغلق الباب من خلفه.

فزع فارس لأن الباب أُغلق دون أن يُغلقه أحد، وكان الظلام في الكهف دامسًا لا يرى فيه يده. تحسس فارس حوله، فوجد حائطًا عن يمينه وحائطًا آخر عن يساره وبينهما ممر؛ فلم يملك إلا أن يتقدم إلى الأمام حتى يخرج من هذا الممر المظلم، ولكنه بدأ يسمع أصواتًا غريبة، ولكنها ضعيف؛ أصوات استغاثات وأصوات بكاء. وكلما تقدم، سمع الصوت أوضح. وفجأة تعثر في شيء كروي على الأرض، في الغالب جمجمة (كذلك دار بخلده الخائف، فكل شيء في الظلام يتشابه). اضطرب قلبه وارتعد من الخوف، وابتعد عن ذلك الشيء الكروي وتقدم إلى الأمام. لا رجعة الآن، فالباب مقفل؛ فأين يذهب؟ ولكنه سمع صوتًا أو هُيِّئ له أنه يسمع صوتًا يناديه: «فارس! فارس! فارس!»

كان صوتًا خافتًا جدًّا ومخيفًا، فأقنع نفسه أن لا أحد يحدثه وأنه يتوهم هذا كله؛ فالخوف يصنع كل شيء. فكر فارس في ألا ينتبه لصوت غير موجود، ولكنه سمع شيئًا جعله يرتعش وجعل قلبه يخفق كما لم يخفق من قبلُ؛ سمع صوتًا اقتلع قلبه. ليس بالصوت المخيف جدًّا، ولكنه قال له: «بل أنا أناديك، يا فارس!»

كيف سمعه هذا الصوت المتكلم وهو لم ينطق بكلمة؟

توقف فارس عن الحركة وبقي في مكانه لوقت لا يعلم مداه إلا الله، ثم اختفى الصوت واستجمع فارس قواه وهز رأسه واهتزت أذناه حول رأسه، وتقدم مرتعدًا إلى الأمام، فسمع الصوت من جديد: «أنا أناديك، يا فارس! أهذا اسمك حقًّا أم أنك لا تعرف اسمك؟»

تحرّك فارس إلى الأمام بكل ما أوتي من قوة، ولكنه تعثر من الخوف، فضحك ذلك الصوت وقال: «ألا تعلم من أنت؟ كيف تحيا وأنت لا تعلم من أنت».

ثم صرخ هذا الصوت وهو يقول: «أجبني عندما أحدثك».

صرخ فارس وقال:

- ماذا تريد مني؟

- أريدك أن تجيبني. هل فارس اسمك؟

- من أنت؟ وأين تختبئ؟

- أنا لا أختبئ، فأنا في كل مكان.

- أريد أن أراك، ماذا تريد مني؟

- نا لا أريد شيئًا. أنت الذي تريد.

- أنا أريد أن أخرج من هنا.

- اخرج. هل تنتظر لقمر أن تأتي وتحملك؟

صمت فارس قليلًا وقال:

- كيف تعرف كل هذه الأشياء؟

- هل اسمك فارس فعلًا؟

لم يرد فارس، فقال الصوت:

- أين أمك، يا فارس؟

توقف فارس عن الحركة مجددًا وبكى قليلًا، فقال الصوت:

- هل قتلت أمك وأباك بهذا السيف الذي كان بيدك؟ هل قتلتهم؟ وكيف تشعر وأنت قد قتلت أهلك بيدك؟ هل حقًّا لا تعرف من أنت أم أنك تهرب مما فعلت؟

قال فارس صارخًا: اظهر، أيها الجبان، لأقتلك بيدي.

فقال الصوت: هل تتذكر الدماء التي كانت على السيف، يا قاتل أبيك؟

صرخ فارس مجددًا: ابتعد عني!

رد الصوت قائلًا: هل تستحق قمر حقًّا؟ إنها أشجع منك بكثير؟ ألا تخشى ذلك؟

قال فارس: أين أنت؟ دعني أراك لأقتلك.

فقال الصوت: أنا هنا. ألا تعرفني؟ أنا من سيقرب موعد أجلك ويقتلع قلبك. انظر إلى نفسك ترتعش وقدماك لا تثبُتان وصوتك مضطرب. أنا بداخلك الآن!

وضع فارس يده على أذنه، ولكنه ما يزال يسمع الصوت. إن الصوت نابع من داخله! ركض فارس إلى الأمام بسرعة حتى وجد ضوءًا يأتي من بعيد، وكلما اقترب، صار الضوء أقوى وتخافت الصوت حتى رأى بابًا عاليًا، فقفز منه وهو لا يعلم أين يذهب به؛ ولكنه يريد أن يُنهي هذا الكابوس المخيف.

وجد نفسه يقفز في بحيرة من سائل أحمر اللون، فاعتقد أنه دماء، فحاول أن يخرج من تلك البحيرة الحمراء مسرعًا؛ ولكن بعض السائل قد دخل إلى فمه، فلم يجده دمًا. إنه يتذكر طعم الدم جيدًا عندما أفاق في الصحراء وكان على شفتيه بعض الدماء. فلما خرج من البحيرة، اكتشف أن البحيرة كلها من الخمر.

وجد ثلاثة رجال نائمين على شاطئ البحيرة وملابسهم ممزقة بعض الشيء ومتسخة جدًّا. ووجد أمامهم إناء به بعض روث الحمير، فاندهش من هذا المنظر.

استيقظ رجل من الثلاثة وقال له:

- أهلًا بك، أيها الوافد الجديد.

- ما كل هذه الخمر؟

- هذا ما سيُنسيك ما سمعته في ممر الخوف.

- ما هذا الروث؟ يوجد على شفتيك بعضه.

- هذه الفاكهة اللعينة تتحول إلى روث حمير في الصباح. لا تفكر كثيرًا! سأذهب لأحضر بعض الطعام. أما أنت، فارتَح؛ فهذا الممر متعب جدًّا. ما اسمك؟

- اسمي فارس.

- أهلًا، يا فارس. أنا اسمي ...

ضرب الرجل رأسه وقال: آه، اسمي ناصر.

رحل الرجل وترك فارس ليرتاح، ونام فارس بعيدًا تحت شجيرة.

٢٢

استيقظ فارس، فوجد الليل قد حل وسمع صوت ضحك مرتفع جدًّا والرجال الثلاثة يتحدثون وهم سكارى.

- هذا الجبان الذي في الكهف أطلق عليَّ أسودًا ووحوشًا وأراد أن يقتلني.

- كلنا نعلم أن هذا لم يحدث.. كان يقولها وهو يمد يده إلى البحيرة ليملأ كوبه، ثم وضعه على فاه وشربه دفعة واحدة، ثم أكمل قائلًا: أتعلم ماذا قال لي؟

- ماذا؟

- قال لي إن أخي الأصغر دائمًا أقوى مني وأشجع مني، ودائمًا يحبه أبي وأمي أكثر مني. وذكرني أنني ذات مرة، وعمره أربعة أعوام وكان عمري ثمانية أعوام، أنني حاولت أن أقتله؛ لأنهم يفضلونه كثيرًا حتى حين كان رضيعًا، كان يفضلونه عليَّ. كنت فتى صغيرًا يحب أباه وأمه وجاء هذا الطفل ليأخذ كل الحب والحنان مني، فكدت أن أقتله. كان خطأ! أعلم ذلك، ولكني كنت صغيرًا جدًّا وندمت على ذلك.

- جبان.. علق أحدهم بغضب

- لا أنا لست جبانًا، يا صديقي.

- لا، لست أنت، يا عزيزي. أنا أقصد الصوت الذي في الكهف. كيف يُذكّرك بمثل هذا؟!

- إنه لم يتوقف عند هذا، بل قال لي الجبان إن أخي سينعم بحبيبتي التي لطالما أحببتها وسيتزوجها؛ فهو أفضل مني، وستجد حبيبتي فيه كل الصفات الناقصة عندي؛ لأني سأفشل في هذا الاختبار. إنها حبيبتي التي أحببتها منذ صغري.. بكى الرجل

- أتخشى ذلك إلى هذه الدرجة؟

- نعم.

- أحاولت أن تقتل أخاك فعلًا؟

- نعم. كنت صغيرًا ولا أعلم الصواب من الضلال.

بكى الرجل وشرب كوبين من الخمر، ثم سكب على رأسه كوبًا آخر.

- هذا اللعين الذي في الكهف يعرف كل شيء.

قال أحد الثلاثة ولم يكن يتكلم طوال الحديث، بل كان يستمع فقط.

- هذا اللعين قال لي أيضًا أشياء حاولت أن أدفنها في أعماقي منذ سنوات وسنوات.

- أنت أيضًا؟

- نعم.

- ماذا قال لك؟

- لا، لن أذكرها؛ فنحن هنا لننسى، لا لنتذكر.

- ربما ما زلت لم تسكر بعدُ؛ فبعد كوبين ستحكي كما حكى صاحبنا؛ فهذا يحدث كل ليلة.

ضحكوا جميعًا حتى دمعت أعينهم وكان أمامهم بعض الفاكهة، ولكنها نفدت، فأخذوا يشربون ويسكرون حتى نادى أحدهم وقال:

- يا غلام، أين أنت؟ يا غلام، أحضر الفاكهة حالًا.

ظهر ثلاثة فتية صغار ومعهم وعاء به القليل من الفواكه. اندهش فارس لظهور هؤلاء الفتية، فظل يراقبهم وهو مُستخفٍ خلف الشجيرة، فاقتربوا من الرجال ووضعوا الفاكهة ورحلوا ببطء، فقال لهم أحدهم:

- لا تذهبوا بعيدًا. أحضروا مزيدًا من الفاكهة.

ضحك الفتية ورحلوا عنهم. وبعد قليل، جاؤوا ووضعوا روث الحمير في إناء الفاكهة؛ والغريب أن الرجال كانوا يأكلونه؛ فهم لا يدركون من الدنيا شيئًا. أما الفتية الصغار، فكانوا يتقلبون على الأرض من الضحك كلما أخذ أحد الرجال قطعة ووضعها في فمه.

عرف فارس مصدر هذا الروث، فلا توجد فاكهة مسحورة أو شيء من هذا القبيل. وحاول فارس أن يصل إلى الفتية ببطء، فلاحظوا وجوده، فركضوا إلى ممر بين الأشجار فزعين، فقال فارس:

- تعالوا إلى هنا. لن أؤذيكم؛ فأنا لا أقصد شرًّا.

فقال أكبرهم وهو يركض:

- ماذا تريد؟ ليس لك أن ترانا.

- من أنتم؟ وماذا تفعلون هنا؟ توقفوا.

- أرجوك! إذا علم أحد في الواحة، فسنكون في ورطة كبيرة.

- اقتربوا ولا تخافوا؛ فلن أفشي سركم.

- دعنا وشأننا، أرجوك.

- من أنتم؟

- نحن من سكان الواحة، وليس مسموحًا لنا بالدخول إلى هنا. أرجوك دعنا وشأننا.

- إذن لماذا جئتم؟

- جئنا لنمرح ونسخر من هؤلاء السكارى.

- لا تفعلوا ذلك ثانيةً.

- لن نفعل، ولكن اتركنا ولا تتبعنا.

- ارحلوا، ولا تفعلوا ذلك مجددًا.

رجع فارس، فوجد الرجال الثلاثة يغطون في النوم بطريقة لا تليق ببشر؛ فأحدهم ملقى على الأرض ورجلاه في البحيرة، والآخر نام والروث في فمه؛ فعدَّل فارس وضعهم، ثم ذهب وأحضر بعض الثمار وأكل ونام حتى طلع الصبح.

في الصباح، استيقظ فارس وأيقظ الرجال الثلاثة وقال:

- هيا استيقظوا.

- ماذا تريد؟

- لماذا توقظنا؟

- هيا بنا لنرحل جميعًا من هنا.

- إلى أين، أيها المخبول؟

- سنكمل الاختبار معًا.

- ونترك بحيرة الخمر! هذا ألذ ما ذقت في حياتي. هذا دوائي وفيه شفائي.

- ألا تشتاقون إلى حياتكم؟

- لا. هنا أفضل من الخارج؛ فحياتنا كلها فشل.

- يجب أن تُفيقوا.

- ومن قال لك إننا نريد أن نُفيق؟ وما الذي يستدعي أن نُفيق من أجله؟ الحياة دائمًا ما تكون أحلى للسكارى.

- لا، هذا ليس صحيح.

- ما الذي يعنيك فينا؟ ما اسمك؟

- اسمي فارس.

- وما يعنيك، يا فارس؟

- ألستم خائفين أن يترككم من ينتظركم؟ ألا تخاف أنت أن يأخذ أخوك الأصغر حبيبة عمرك؟

- كيف عرفت هذا؟ من قال لك؟ قال الرجل بانفعال شديد

- أنت من قال كل هذا وأنت سكران. أتخشى من ذلك؟ أتخشى أن تخسر حياتك؟ إذن ماذا فعلت؟! جلست هنا لتسكر وتخسر حياتك فعلًا، أم تحاول أن تُنهي هذا الاختبار وتخرج رجلًا قويًّا يفتخر بك من يعرفك ويحبك أبوك وامك، وتفوز بقلب حبيبتك؟

- اذهب واتركنا في ما نحن فيه. لقد فات الأوان! نحاول أن ننسى ما يؤرِّقنا، فتأتي أنت لتُثير مواجعنا!

- أنتم تحاولون أن تنسوا؟ لن تنسوا ولو شربتم هذه البحيرة كلها؛ فكل ما تفعلونه هو الهرب ليس إلا. أنا ذاهب، فمن يرد أن يأتي، فليلحق بي.

- سآتي معك.. قال ناصر بحماس

- حسنًا! بداية طيبة! هل سيأتي أحد غيره؟

- لا. اذهبوا واتركونا للأنس الذي أفسدتموه.

ذهب فارس وناصر الذي تعرف عليه بالأمس وقال له فارس:

- كم مكثت هنا، يا ناصر؟

- عامًا أو أكثر بقليل.

- يا لها من فترة طويلة، يا ناصر!

- نعم.

- هل أنت متزوج؟

- لا لست متزوجًا، ولكن كان من المفترض أن أتزوج حين أخرج من هنا.

- تتزوج من؟

- نبيلة.

- نبيلة ابنة الحكيم!

- نعم.

- هي من طلبت منك أن تدخل الاختبار؟

- لا، بل أبوها.

- وما منعك أن تُنهي الاختبار؟ هل سمعت ما أزعجك إلى هذا الحد في كهف الخوف؟

- لا، ليس الخوف ما يُعيقني. أنا أخاف حقًّا، ولكن ليس إلى الدرجة التي تُعيقني أن أنهي الاختبار.

- إذن ماذا يعيقك؟

- المرحلة التالية هي التي تُعيقني دائمًا.

- وما المرحلة التالية.

- إنها النساء.

- كيف هذا؟

- سترى امرأة فائقة الجمال، أجمل ما رأت عيناك، تدعوك إليها بحب ودلال.

- لا يُعقل هذا.

- سترى بنفسك.

مضوا قدمًا وإذا بهمس ناعم كالحرير ينطق ويقول: «فارس! فارس! أين أنت، يا فارس؟ هلم إليّ، يا فارس!»

صوت رقيق جدًّا، صوت محب يحرك أحاسيس في نفس أي رجل، فقال ناصر:

- أتسمع، يا فارس؟ إنها تناديني؛ تقول هلم إليّ، يا ناصر!

- أظنها نادتني أنا.

- الكل مُنادى هنا، يا عزيزي؛ فكل أحد له نصيبه.

اقتربا من باب مفتوح في الممر على يسارهم والصوت يعلو ويقول: «فارس! أحتاج إليك، يا فارس! تعال!»

فقال ناصر: إني قادم! إني قادم!

اندفع ناصر إلى الغرفة وشاهده فارس وهو يقف على باب الغرفة، فنظر فوجدها قمر ترقص شبه عارية! بالكاد تغطي أغلظ مفاتنها! وترقص كما ترقص الجواري لأسيادهن، وتنظر إليه وتقول هلم إليّ، يا فارس!

ولكن فارس لاحظ أن ناصر يقترب منها أيضًا وينظر إليها بكل شهوة، ولكنها لا تنظر إليه. من تلك الفتاة؟ هي ليست قمر، بل تشبهها. إنه لشيء غريب!

حدث شيء آخر أكثر غرابة؛ فعندما ذهب ناصر واقترب منها، خرجت صورة من هذا الجسد الراقص كانت في هيئة نبيلة. إنها خدعة كبيرة! فقال فارس:

- احذر، يا ناصر! هذه ليست نبيلة؛ إنه وهم.

- لا عليك، يا صديقي، فأنا لا أقاوم النساء. هذا دائي وأعلم أننا بعد أن نمرح سويًّا بعض الوقت سترميني في كهف الخوف، وأنا لا أخاف إلا النساء! ثم سأرجع إلى الرجال لأسكر وأنسى، وهكذا! منذ عام أنا على هذه الحال! والآن اتركني مع الحسناء.

تقدم فارس إلى الأمام وهو يسمع صوتًا رهيفًا رقيقًا يرجوه: «تعالَ هنا، يا فارس! لا تتركني وحيدة. أحتاج إليك كما تحتاج إليَّ».

ركض فارس وهو يضع يده على أذنيه وابتعد عن الغرفة. كان الممر يتغير شكله، فبدا أجمل من الممرات الأخرى، وانتشرت على جانبيه أشجار ممتلئة بالورورد العطرة ذات الألوان الأخاذة؛ فسعد فارس وشعر بانتهاء الاختبار ونجاحه فيه، واقتراب اقترانه بقمر ومكوثه في هذه الجنة؛ لكنه وجد أن الممر ينتهي به إلى باب كهف جديد. خشي فارس أن يكون كهف خوف آخر، فمكث بعض الوقت في الخارج يفكر: ألا تنتهي هذه الاختبارات؟ حتى سمع صوتًا بالداخل يقول: «تعالَ ولا تخف!»

كان صوت رجل كبير هادئ لا يدعو للخوف، ولكن فارس لم يتقدم، فتكرر الصوت وقال: «تعالَ، يا فارس، ولا تخف!»

تقدم فارس إلى داخل الكهف، فوجده مُضاءً بلون أحمر وأزرق، ووجد رجلًا يناهز الستين يجلس أمام كومة من الرمال الناعمة البيضاء وعلى يمينه سائل أزرق يخرج منه البخار، وعلى يساره سائل آخر يشبه الماء. وأمام الرمال رأى لهبًا أسود يتراقص ببطء.

قال الرجل: «اجلس، يا فارس».

جلس فارس يراقب الرجل وقال له:

- هل هذا اختبار أيضًا؟

- هذا اختبار، إن حسبته اختبارًا.

- كيف هذا؟

- كل شيء يتوقف عليك، يا فارس.

صمت الرجل قليلًا ثم قال:

- لا عليك. سأريك شيئًا مثيرًا للاهتمام.

أخرج الرجل إناء حديديًّا مسطحًا وله يد طويلة، ووضع فيه بعض الرمال الفائقة النعومة والبيضاء جدًّا التي أمامه؛ لا يكاد يضع فيها الإناء حتى يتطاير بعضها مثل الرماد. وضع الرجل الرمال في الإناء المسطح ووضع الإناء على النار السمراء، وكان بعض الدخان الأبيض يصعد من الرمال، وبدأت حبّاته في الاصفرار، ثم حرّك الرجل الإناء الذي به الرمال فوق السائل الأزرق، وأخرج إناء آخر فارغًا ووضعه في السائل الأزرق، فخرج دخان بارد. ثم رفع الرجل بعض السائل الأزرق وسكبه على الرمال الساخنة، فتحول لونها إلى اللون الذهبي.

قال فارس:

- ما هذا؟

- خذها في يدك، يا فارس.

أعطاها له الرجل وهي تلمع أمام عيني فارس، فأخذها فارس بحرص وتفحصها، فكانت باردة جدًّا وكانت كتلة ذهب صافية حقًّا.

- ماذا ترى، يا فارس؟

- ذهب خالص!

- بالفعل، يا فارس. هذا ذهب خالص.

- لقد صدق نظير! أيمكنه تحويل الرمال إلى ذهب؟

- كثير من أهل الواحة يستطيعون ذلك.

- حقًّا!

- نعم.

- ولكني لا أرى أي ذهب في الواحة.

- وما الحاجة إليه؟

- الذهب شيء ثمين.

- ليس في كل الأوقات، يا فارس.

- هل لك أن تعلمني؟

- بالطبع، يا فارس. هذه رمال ناعمة بيضاء.

- من أين أحضرها؟

- سأخبرك. فاستمع إليَّ وستعرف كل الأجوبة التي تريد أن تعرفها.

- هذه رمال بيضاء ناعمة كما ترى. تضعها على هذه النار السوداء حتى يصفر لونها، ثم تضع بعض هذا السائل الأزرق عليها، فيكون ذهبًا! سأفعل هذا أمامك ثانيةً، ولكن عليك أن تركز.

أمسك الرجل ببعض الرمال ووضعها على النار حتى اصفرت، ثم وضع عليها بعض السائل الأزرق، فتحولت إلى ذهب؛ فقال الرجل:

- هل عرفتها جيدًا، يا فارس؟

- نعم.

- الآن جرّب أنت.

كرر فارس العملية التي تعلمها من أول وهلة، ولم يكن الرجل في حاجة إلى تكرارها أمامه. ونجح فارس في تحويل الرمال إلى ذهب وكان سعيدًا حقًّا. أمسك فارس بالقطعتين الذهبيتين وهو في غاية السعادة.

- أحسنت صنعًا، يا فارس!

- شكرًا لك.

- هل تراه أمرًا سهلًا؟

- نعم، سهل جدًّا وبسيط.

- الآن أعطني الذهب الذي في يدك.

تردد فارس قليلًا، ثم أعطاه الذهب. أخذ الرجل القطعتين من فارس، ووضع معهما القطعة التي في يده، ووضعها جميعًا في الإناء الحديدي المسطح، ثم وضعه على النار، فذاب الذهب، ثم وضع عليه بعض السائل الذي يشبه الماء، فتحول إلى رمال ثانيةً، فوضع الرمال على كومة الرمال التي أمامه. انزعج فارس وقال:

- لِمَ صنعت هذا؟

- هذا أصله، يا بني.

- ولكنه صار ذهبًا.

- ولكن الأصل يغلب.

- ولكن الذهب ثمين.

- هناك أشياء كثيرة أثمن من الذهب.

- ماذا تعني؟

- لا عليك. أتريد أن تعرف كيف تحضر هذه النار، وتأتي بهذا السائل الأزرق، ومصدر هذه الرمال، وهذا السائل الأبيض؟

- نعم.

جلس الرجل يعلّم فارس كل شيء بالتفصيل، فعلّمه أولًا كيف يحضر السائل الأبيض. وأصرَّ على تعليمه إياه أكثر من مرة؛ لأن فارس بدا غير مهتم بهذا السائل الذي يحول الذهب إلى رمال. وعلمه مصدر الرمال البيضاء وكيفية تحضير النار السوداء والسائل الأزرق. بدا فارس فرحًا بما تعلمه، فقال له الرجل:

- والآن، يا فارس! بعد أن عرفت كل شيء، لا بد أن تعرف شيئًا أخيرًا قبل أن تخرج من هذا الكهف.

- ما هو؟

- إن هذه الطريقة ملك للواحة فقط.

- ماذا تعني؟

- أعني أنك لا تستطيع أن تستخدمها في أي شيء له علاقة بك، ولا لأي سبب إلا في منفعة الواحة وبإجماع من أهل الواحة فقط.

- ما هذا؟! ولِمَ علمتني إذن؟! أهذا هو الاختبار؟

- هذه هي القواعد، يا بني. وإن خالفتها، فسُيحكم عليك بالحكم المحتوم.

- هذا يعني أني لا أستخدم هذه الطريقة مهما كانت الأسباب، إلا بطلب أهل الواحة.

- نعم.

- يا ليتني ما تعلمتها!

- عليك أن تحفظ هذا السر كما تحافظ على روحك.

- إنه لاختبار شديد يبقى مدى الحياة.

- لا تأخذ الأمور بهذه الطريقة، فسيكون ذلك شاقًّا عليك.

- وكيف أفهمها؟

- افهم الأمر على أنه سر فقط.

- ولكنه سر يُدِرُّ ثروة هائلة.

- ولكنه مدمر في الوقت نفسه، يا بني.

- كيف هذا؟

- لا عليك. كل ما هو مطلوب منك ألا تبوح بهذا السر أبدًا، وإلا حُكم عليك بالحكم المحتوم.

- اللعنة على هذا الحكم.

- تعلم في دنياك ألا تلعن الأشياء.

- ولو كانت ملعونة؟

- هل ستحفظ السر؟

- نعم، سأحفظه.

- هذا إذن هو اختبارك.

- هل هذا آخر الاختبارات؟

- وهل تنتهي الاختبارات بذلك، يا بني؟

- حق لهذا المكان أن يُطلق عليه متاهة؟

- إن الدنيا كلها متاهة لمن ضل سبيله، يا بني.

- هل لي بسؤال أخير؟

- تفضل.

- ما آخر آختبار في هذه المتاهة؟

- هذا آخر اختبار، يا بني. اخرج إلى الواحة من هذا الطريق.

أشار الرجل إلى فارس أن يخرج من باب في الكهف، فخرج فارس، فوجد الشمس والضياء، ووجد ممرًا واسعًا أوسع من الممرات الأخرى، كثرت فيه الورود؛ فأسرع بالخروج. شعر فارس بالنجاح لاجتيازه هذه المتاهة الصعبة، وبدا سعيدًا جدًّا؛ فأخيرًا سيخرج من هذه المتاهة لينعم بالحياة مع قمر في هذه الواحة الساحرة؛ لكنه شم رائحة غريبة! إنها رائحة شيء يحترق، فأسرع ليخرج من الممر، فإذا به يرى أن الواحة قد احترقت. كان الدخان يخرج من الأشجار التي تركها خضراء مثمرة، فيخفي السماء الصافية. كل شيء تغير! لم يصدق فارس ما رأى؛ هل هذا كابوس مزعج أم أني لا يُكتب لي أن تكتمل لي الأشياء؟ هكذا تساءل!

بحث فارس عن أي أحد من سكان الواحة، فلم يجد؛ ولكنه سمع أصوات خيل ورجال جاؤوا من حيث لا يعلم. كانوا يقولون:

- يبدو أن أحدًا سبقنا إلى هنا.

- هل انتشر خبر مكان الواحة بهذه السرعة؟

- يبدو كذلك.

- كيف يعرف بهذا المكان أحد قبلنا؟ نحن من أمسكنا بالرجال الذين كان يُلقون شابًّا على مشارف الموت في في الصحراء.

- ولكننا تأخرنا يومًا لنُعِدَّ أنفسنا، واعتذر عن القدوم معنا من أول وهلة سمعان وأعوانه.

- يا له من خائن! ولكن لماذا أحرق المكان هكذا؟

- أنت تعلم أننا لم نأتِ إلى هنا لننعم بالمكان الجميل، بل جئنا لنحصل على

الكنز الذي كان يتمتم به الشاب قبل موته.

- نعم، الذهب الذي كان يتمتم به نظير قبل موته.

- نعم، تحويل التراب إلى ذهب. يا له من سر عظيم استأثر به هؤلاء القوم!

- لا بد أن نبحث جيدًا عن أحد من سكان الواحة ليعلّمنا الطريقة.

كان فارس يسمع هذا الكلام وهو يحاول أن يختبئ بين الأشجار المحترقة؛ فهؤلاء جاؤوا يقصدون سر الذهب وسيفعلون أي شيء ليحصوا عليه. ومن الواضح أنه الناجي الوحيد من الواحة؛ فلا بد له أن يختبئ. كانت الدموع تسري على خديه يبكي أحلامه الضائعة؛ ضاعت قمر وضاعت الواحة، وعاد مثلما كان تائهًا في الصحراء، بل أسوأ. ففي الصحراء، كان من الممكن أن ينجو، ولكن فرصة النجاة من هؤلاء الرجال ضعيفة جدًّا؛ فعددهم يتعدى الخمسة عشر رجلًا أو أكثر من عشرين. إنه تائه بين أحلامه الضائعة. وبينما هو كذلك، سمع أحدهم يقول:

- ابحثوا جيدًا في الكهوف وبين الأشجار.

انتشر الرجال؛ بعضهم بدأ بالبحث في الكهوف، والبعض الآخر بين الأشجار. ولم تمضِ دقائق حتى أمسكوا بفارس.

- لقد وجدنا أحدهم.

- أحضروه إليَّ.. قال قائدهم

- ما اسمك، أيها الرجل؟

- اسمي فارس.

- ماذا حدث هنا؟ ومن أحرق هذا المكان؟

- لا أعلم. لم أكن هنا.

- هل أنت من أتباع سمعان أم من أهل الواحة؟

لم يرد فارس؛ فكلتا الإجابتين لا تؤدي إلى نتيجة جيدة. تمنّى حينها أن ينسى

كل شيء ويبدأ من جديد، ولكن هل يصدقون أنه فعلًا نسي كل شيء. إنهم لا يبدُون مثل ممدوح. صرخ الرجل قائلًا:

- أمسكوه جيدًا؛ فلا بد أنه من أتباع سمعان.

- لا. أنا لست من أتباع أحد.

- إذن أنت من سكان الواحة.

- كان من المفترض أن أكون من سكان الواحة اليوم.

- كيف هذا؟

- لقد كنت ضيفًا على الواحة، وطلبوا مني اجتياز اختبار حتى أستطيع أن أنضم إليهم وأتزوج منهم.

- وما هذا الاختبار؟

- عدة اختبارات، منها العبور بين النار والأشواك وأشياء من هذا القبيل.

- وأين كنت عند هجوم سمعان وأعوانه؟

- كنت في متاهة الاختبار.

- لا تكذب عليَّ.

- أنا لا أكذب.

- هل تعرف أنهم كان باستطاعتهم أن يحولوا التراب إلى ذهب؟

- نعم، سمعت شيئًا من هذا القبيل.

- إذن هذا السر ثمنه حياتك، إما أن تخبرنا به أو تموت.

- لا، لن أخبرك به.

- وما الذي يجعلك واثقًا بهذه الطريقة؟

أخرج الرجل سيفه وحركه في الهواء وهو يشير به إلى فارس ويقول:

- ألا تعلم أن بإمكاني أن أقتلك؟

- نعم، أعلم.

- إذن ماذا يمنعك أن تقول السر؟

- أفضِّل أن أموت على أن أخون سر الواحة.

- عن أي واحة تتكلم؟!

- هذه الواحة.

- تقصد الأشجار المحترقة والدخان المتصاعد. لم يعد هناك واحة ولا أحد من سكانها لتحفظ سرهم.

- الواحة ستبقى وستنمو مجددًا، وسيأتي إليها أهلها؛ فدائمًا ما يكون للواحة أهل.

- أنت تحكم على نفسك بالموت.

- الموت عندي أفضل من الخيانة.

صاح الرجل قائلًا:

- قيدوه في شجرة غير محترقة، وأحكموا وثاق يديه ورجليه.

فعل الرجال ما قال كبيرهم، وقيدوا فارس في شجرة وأحكموا وثاقه بشدة حتى تأذى. ثم قال كبيرهم:

- اتركوه هكذا وهلمّوا نبحث حول الواحة عن أحد غيره؛ لعنا نجد بعض الهاربين. فإن لم نرجع، فسيموت من الدخان والجوع وحده في واحته الجميلة.

فكر فارس للحظات: هل يصنع الصواب أم لا؟ هل من المفترض أن يقول للرجل السر ويتركه ويرحل؟ لكنه فضَّل أن يموت على أن يخون، فضَّل أن ينسى كل شيء على أن يخون قمر وأهل الواحة؛ ولكنه لا يتمنى أبدًا نسيان قمر وممدوح والواحة.

وبعد ساعتين تقريبًا، عاد الرجال فقال له قائدهم:

- أما زلت مُصرًّا على رأيك؟

- نعم.

- إذن أنت من نطق الحكم.

رفع الرجل سيفه عاليًا وأنزله بسرعة ناحية رقبة فارس، فإذا بشيء عجيب يحدث! لقد سقطت الجبال التي أمامه، واختفى الدخان إلا القليل من وراء ظهره، وطلعت الشمس في سماء صافية، وفُكَّ وثاقه، وظهرت الواحة سالمة أمامه.

قال فارس في نفسه: «إنه الموت، وهذه هي الجنة. الواحة هي الجنة. يا لها من حياة حلوة! ولكن أين قمر؟» وإذ بقمر تظهر ومن خلفها يظهر ممدوح. تفاجأ فارس كثيرًا برؤيتهم، وركض ناحية قمر واحتضنها، وقال: «لا حياة من دونك!» ثم التفت إلى ممدوح وقال: «لقد علمت أنك في الجنة. وكنت آمل أن أراك مجددًا، يا أبي».

كانت الدموع تسيل من عيني ممدوح فقال لفارس:

- لقد علمت أنك ستنجح، يا بني.

- أنجح في ماذا؟!

- في هذا الاختبار.

- لا مزيد من الاختبارات؛ فنحن في الجنة، يا أبي.

- الاختبارات لا تنتهي ما دمنا نحيا، يا بني.

- هل نحن أحياء؟

ردت قمر وقالت:

- نعم، يا فارس، هذا كله كان من الاختبار! أنت حي تُرزق، وهذه هي الواحة، وهذا أبوك.

- كيف تعرفين ممدوح؟ وكيف أنت حي، يا أبي؟ ألم تمت؟ لماذا اختفيت عني كل هذا الوقت؟

ظهر الحكيم وخلفه أهل الواحة وفارس متخبط لا يعرف شيئًا، فقال فارس لممدوح:

- لقد ظننت أنك مت، يا أبتاه.

- لا، يا بني، لم أمت. كنت أنتظرك هنا، وكنت أعلم أنك ستأتي وتنجح في الاختبار.

- كيف كل هذا؟

جاء الحكيم وقال:

- هنيئًا لك، يا بني! وهنيئًا لك، يا ممدوح، عودة ابنك! وهنيئًا لكِ، يا قمر، عودة خطيبك!

- لا أفهم شيئًا.

قال الحكيم:

- اسمع جيدًا، يا بني. لم تكن هذه المرة الأولى التي تدخل فيها متاهة الخوف. لقد رسبت في المرة الأولى وأفشيت سر الذهب، وحينها حُكم عليك بالحكم المحتوم. ولقد شربت السائل، ولكن مفعول هذا السائل أن تنسى كل ما كان قبله. ثم أخذك أبوك ممدوح وراهن على عوتدك إلى هنا وعلى نجاحك. ثم تركك في الصحراء بزيِّ فارس وبعض الدماء على ملابسك وعلى سيفك.

وما هذا الخراب الذي رأيته إلا رسومات كبيرة لمنظر الواحة قبل إعمارها. وهذا جزء من الاختبار؛ فحفظ سر الواحة شيء أساسي للحياة هنا. كل هذا كان بتخطيط من والدك؛ فلقد آمن بك وقال إنك ستعود وتنجح في الاختبار في المرة الثانية. أما قمر، فكان من الغريب لنا جميعًا أن تحبها ثانيةً وتصنع ما صنعت

من أجلها؛ فقد كانت حبيبتك من الأساس؛ فهنيئًا لك، يا بني على كل هذا! وهنيئًا على عودتك لحياتك بيننا! وأهلًا بعودتك ثانيةً لنا، يا بني. ومرحبًا بك في واحتك من جديد.

وهكذا كان الحكم المحتوم هو سر النسيان!